عبدالله بن المبارك
الشاعر الزاهد

دكتور
الحسينى محمد إبراهيم الفقى

عبدالله بن المبارك الشاعر الزاهد

دكتور
الحسينى محمد إبراهيم الفقى

المقدمة

لله،بنعمه تتم الصالحات،والصلاة والسلام على سيد الكائنات،سيدنا محمد عليه الصلوات والتسليمات،وعلى آله وصحبه ما دامت الأرض والسموات، وبعد

من الثابت أن الزهد يمثل ظاهرة دينية بالغة العمق، وإذا كان له فى أدبنا ــ نحن العرب ــ شأن كبير، فلا غرو فى ذلك! لأنه الأدب الذى يمثل أسمى النماذج التى تحث على الفضيلة، وتحذر من الرذيلة، وأدب بهذه الصفة "هو أدب موضوعى يستهدف رسالة فى علم النفس والأخلاق والتربية، لا يستطيع أن يحلق فوق قممها سواه، وهو وحده الذى امتلك الإبداع الفنى الرفيع، وأنجب لنا الصور المثالية الرائعة"(١)، كيف لا، وهو الأدب "الغنى فى شعره، الغنى فى فلسفته، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانا، ومعانيه فى نهاية السمو، وخياله فى غاية الروعة، وعواطفه آية فى الصدق، يعرضها عليك كأنها كتاب تقلبه أنامل الملائكة"(٢).

وإذا كان هذا اللون من الأدب السامى الرفيع يتبوأ تلك المنزلة، فإنه مما يسترعى النظر، ويدعو إلى الأسف، "أن الدراسات الحديثة لم تتناول موضوع الزهد كما ينعكس فى الشعر والنثر بما يستحق من اهتمام ودرس، فظل مهملا أو كالمهمل"(٣)، ويتمثل هذا الإهمال فى قصر جل الباحثين هممهم ومعظم دراساتهم حول شعراء نشأوا

(١) أدب الزهد فى العصر العباسى: ٢٤٢، ٢٤٣ .
(٢) ظهر الإسلام: ٤/ ١٧٣ بتصرف .
(٣) أدب الزهد فى العصر العباسى: ٣ بتصرف .

فى المجون، ثم تزهدوا فى أخريات حيواتهم، أمثال: آدم بن عبدالعزيز، ومحمد بن يسير الرياشى، وأبىنواس، وأبىالعتاهية، وصالح بن عبدالقدوس وغيرهم، وإهمالهم لشعراء تزهدوا منذ نشأتهم، وعاشوا حياة ملؤها الطهر والصفاء، وظلوا على مبدئهم حتى النهاية، أمثال: عبدالله بن المبارك، ومحمود الوراق، ومحمد بن كناسة، وإبراهيم بن أدهم، وغيرهم من الزهاد الحقيقيين الذين كان زهدهم زهد طبع وسجية، لا زهد صنعة وتكلف.

وليس أدل على هذا الإهمال لشاعرنا من "الإجماع الملحوظ فى كتب التراجم على أنه كان شاعرا، بيد أنها لم تنصفه فى شعره، بل أنصفته فى سيرته، إيمانا منها بأن الجوانب الثقافية الأخرى فيه أولى بالعناية والتسجيل من شعره"(١) .

ولم أجد من بين المحدثين الذين وفوه حقه سيرة لا شاعرا ــ فيما أعلم ــ سوى الإمام الدكتور/ عبدالحليم محمود (رحمه الله)، فقد خصه بمؤلف من القطع الصغير تربو صفحاته على المائة وثمانين صفحة، بيد أنه لم يستشهد بأى نماذج من شعره سوى ستة وعشرين بيتا فقط(٢) .

كما ألف عنه الإمام الشيخ أبوالوفا المراغى كتيبا دون الخمسين صفحة، ولم يستشهد كذلك من شعره إلا بسبعة وأربعين بيتا(٣)، وكل هذه النماذج من الإمامين الجليلين أورداها دون أدنى تعليق عليها بالشرح أو التحليل.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الباحثين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى الجمع لشعره من ثنايا المراجع، وبطون المصادر؛

(١) عبدالله بن المبارك ــ عالم الشرق والغرب وما بينها: ٤٠ بتصرف.
(٢) الإمام الربانى الزاهد:٢١، ٢٢، ٣٠، ٦١، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧ .
(٣) عبدالله بن المبارك ــ عالم الشرق والغرب وما بينها: ٤١ ــ ٤٥

للعكوف عليه ودراسته، ببيان ما فيه من عناصر فنية، وسمات إبداعية، ولاسيما أنه لا يوجد له ديوان يضم شعره الذى لم يسعفنى فى الحصول عليه سوى الموسوعة الشعرية من خلال القرص المدمج الخاص بالحاسوب، فقد دون عليه ما دون من نماذج شعره دون أدنى دراسة عليها بالشرح أو التعليق، ونظرا لعدم ترقيم الصفحات الخاصة بتلك النماذج، عمدت إلى ترقيمها؛ ليكون ذلك أكثر دقة وآكد توثيقا فى الاستشهاد بها، ولم أكتف بذلك، بل جمعت ما تناثر من شعره فى المصادر والمراجع(١) ، ومن خلال التعليق على النماذج خرجت الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث الشريفة من مظانها ومصادرها الرئيسة، كما ترجمت للشخصيات المغمورة التى التقى بها ، وتأثر بمنهجها٠

كل هذا الإهمال الملحوظ تجاه شعره، سواء أكان عن عمد بحسن نية، أم عن غير عمد، دفعنى إلى إيثار تلك الشخصية بالبحث والدرس، وبخاصة أن صاحبها يتبوأ مكانة سامية فى عالم الزهد، ومنزلة راقية فى عالم الشعر، فقد عاش(رحمه الله) إبان القرن الثانى الهجرى، ذلك القرن الذى جمع "الصفوة من خيار المؤمنين الذين كانوا قمة فى العلم والأخلاق الكريمة، أمثال: سفيان الثورى، الفضيل بن عياض، وغيرهما"(٢)، وحسبه شرفا أنه لم يعرف عنه "لهو ولا مجون، وإنما كان عفيفا تقيا، يكثر من العبادة والاجتهاد والصوم

(١) تهذيب الأسماء واللغات، الورقة، طبقات الشافعية الكبرى، حلية الأولياء، الإمام الربانى الزاهد، تاريخ بغداد،وفيات الأعيان، النجوم الزاهرة، العصر العباسى الأول، فى الأدب الإسلامى، عبدالله بن المبارك ــ عالم الشرق والغرب وما بينهما، سير أعلام النبلاء٠

(٢) الإمام الربانى الزاهد : ٧ ٠

والتصدق"[١]، أضف إلى ذلك أنه كان من "طائفة الشعراء الزهاد، ومن طبقة الشعراء الإسلاميين، أمثال: محمد بن كناسة، ومحمود الوراق، وغيرهما"[٢]، لقد كان شاعرا طبقت شهرته الآفاق، وحاز بشاعريته إعجاب القدماء والمحدثين على السواء، فهو "الأديب الكاتب الذى يقول الشعر فيجيد"[٣] و"هو الشاعر"[٤] الذى ينظم "شعرا حسنا متضمنا حكما جمة"[٥]، حتى إن البعض عده من "شعراء الأمة"[٦]، كيف لا، وهو "الشيخ العالم الفقيه العابد الزاهد الذى جمع إلى هذا كله : الأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة"[٧] ، فكان شاعرا "حسن اللفظ، جزل المعنى، فصيح العبارة، بلغ شعره غاية فى الرقة، وكان أنضج من أقرانه من الناحية الفنية، وأقرب إلى الروح الشاعرية"[٨].

نتيجة لكل ما سبق آثرت هذا الشاعر الزاهد بالبحث حول شخصيته، وبيان ملامحها، ومدى أثرها فى شعره الذى تعددت اتجاهات الزهد فيه، ما بين الدينى والأخلاقى والوعظى، فكانت تلك

---

(١) المجلة العلمية بكلية اللغة العربية بالزقازيق: ٢٦٤ ــ مقال بعنوان: شعر الزهد فى القرن الثانى الهجرى دراسة ونقدا ــ الأستاذ الدكتور/ محمد عبدالسلام صقر.

(٢) فى الأدب الإسلامى : ١٦٩ .

(٣) المجلة العلمية بكلية اللغة العربية بالزقازيق: ٢٦٤، الأنساب: ٢٥١/٤، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٠ .

(٤) المجلة العلمية بالكلية : ٢٦٤ ، الإمام الربانى الزاهد : ١٤، الورقة: ١٥ .

(٥) البداية والنهاية : ١٠/ ١٧٧، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٣ .

(٦) طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٧ .

(٧) شذرات الذهب: ١/ ٢٩٦، والعصر العباسى الأول: ٤٠٣، وتهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٤٠ .

(٨) بتصرف ــ الورقة: ١٥، وفى الأدب الإسلامى: ١٦٩ .

الدراسة التى تمثلت فى أربعة مباحث، تسبقها هـذه المقدمـة، ثـم التمهيد، وتعقبها خاتمة، ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

أما التمهيد، فكان بمثابة إضاءة حول عالم الزهد، ببيان ماهيته، وأسبابه، وأماراته، ودرجاته.

ولكى يترجم هذا الزهد على أرض الواقع عمليـا، **كان المبحث الأول**؛ ليحدثنا عن شخصية ابن المبارك، ومدى أثرها فى شعره.

وإذا كان الشعر هو المرآة الصادقة التى ينعكس على صفحتها منهج الشاعر، والاتجاهات التى سلكها فى زهده، **فكان المبحث الثانى**؛ ليكشف عن الاتجاه الدينى فى شعره الذى آثر فيه أسلوب الترغيب والترهيب.

وكان المبحث الثالث؛ لنقف من خلاله على حقيقة الاتجاه الأخلاقى الذى آثر فيه الأسلوب نفسه؛ كى تثمر دعوته الصادقة الخالصة لله وحده.

وكان المبحث الرابع: ليعرفنا على الاتجاه الوعظى فى شعره، وما اشتمل عليه من محاور عدة، تفيض كلها بالاعتبار؛ لتكون عظة لأولى الأبصار.

إثر هذا كله، كانت الخاتمة، وما احتوت عليه من نتائج وتوصيات أسفر عنها هذا البحث، ثم ثبت بالمصادر والمراجع التى أسهمت فى إخراجه على هذا النحو.

وفى الختام، أتوجه إلى الله أن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه، فهو سبحانه مجيب الدعاء، ومحقق الرجاء، وهو المأمول أولا وآخرا فى الأرض وفى السماء.

د/ الحسينى محمد إبراهيم الفقى

التمهيد
إضاءة حول عالم الزهد

إذا كان التصوف يعنى "الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والانقطاع إلى الله، من خلال الاعتماد على مقامات التوكل والذكر والعبادة والتوبة؛ بغية الوصول إلى المحبة الإلهية"(١) فإن "الزهد فى متاع الحياة وطيباتها يمثل أول هذه المقامات، ومن ثم يعد أساسا للتصوف"(٢) .

فكل صوفى ينبغى أن يبدأ أولا بممارسة الزهد فى هذه الدنيا حتى يسلك الطريق إلى الله.

هذا وقد عرف الزهد فى المجتمع الإسلامى منذ عهد الرسول الكريم ، فكان (ﷺ) إمام الزاهدين، وحسبه أنه "ما شبع منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر"(٣) ويؤكد ذلك قوله (ﷺ) "عرض على ربى بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب، أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك"(٤) ثم تبعه الخلفاء الراشدون، والصحب الكرام والتابعون، واستمر هذا اللون فى التطور مرورا بالعصر الأموى من خلال مجالس الوعظ والتذكير بالخالق، حتى بلغ الذروة فى الازدهار إبان العصر العباسى الذى وجد فيه ابن المبارك، وكان هناك العديد من العوامل التى أدت إلى رواج وانتشار ذلك اللون، وكلها ترجع إلى سبب رئيس بالإضافة إلى أسباب أخرى أسهمت فى ازدهاره.

---

(١) بتصرف ــ فى الأدب الإسلامى: ٥٣، فصول فى الشعر ونقده: ١٩٨ ــ ١٩٩ .

(٢) بتصرف ــ الأدب الصوفى:٣٩،وفصول فى الشعر ونقده:١٩٧ .

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ٢٣١ .

(٤) المصدر نفسه:٤/٢٢٣،وصحيح الإمام الترمذى:٩/٢٠٩، ٢١٠ .

أما السبب الرئيس فإنه يتمثل فى الميل الطبيعى لدى الإنسان ــ تلبية لداعى الفطرة ــ إلى الخلوة بنفسه، والعيش فى جو روحى شفاف يجتهد فى الطاعة والعبادة؛ إما هروبا من نوائب الدهر، وأحداث الزمان، وإما إعلانا للتوبة والرجوع إلى الله، ومما لا ريب فيه أن فى كلا الحالين نوعا من الفضفضة لما اعتراه من هموم الأيام، والندم على ما ألم به من اقتراف الذنوب والآثام؛ كى يخلص من هذا كله إلى الراحة النفسية والاطمئنان.

هذا عن السبب الرئيس أما باقى الأسباب فإنها تتمثل فى العوامل الآتية.

العامل السياسى:

لقد بلغت الدولة الغاية فى الاضطراب، فالشعوبية خطرها فى ازدياد، وولاء الفرس للعرب، بل ودخولهم الإسلام، كل ذلك كان مغلفا بالنفاق والرياء، وطالما كانوا يتحينون الفرص للنيل منهم إذا ما لاح بريق من الضعف لأى الأسباب، وليس أدل على ذلك من الإحساس المركوز فى أعماقهم "أنهم حين ينكلون بالعرب، إنما ينتقمون من يوم القادسية المشهور"(١)، وقد تحقق بالفعل هذا الانتقام فيما فعله طاهر بن الحسين الذى ولاه المأمون على خراسان، ما كاد الأمر يستتب له حتى "أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، وأسس دولة الطاهرة كأول دولة مستقلة عن الدولة العباسية"(٢).

أضف إلى ذلك كثرة الثورات بين الأحزاب السياسية، وما ترتب عليها من هزيمة الشيعة إثر مقتل العديد من أئمتهم ، فضلا عن نشأة الفرق الإسلامية وانقسامها على أنفسها.

إلى غير ذلك من الابتلاءات والفتن والاضطرابات:كانتشار الرشوة وزيادة الفساد وظلم الخلفاء، كلها عوامل تضافرت فى بث روح

(١) ضحى الإسلام : ١/ ٦٣ .
(٢) الكامل فى التاريخ : ٦/ ٢٣٩ بتصرف.

اليأس فى النفوس، فكان الملاذ الوحيد فى اللجوء إلـــى رحـــاب الله، وبذل جهد الطاقة بالطاعة والعبادة؛ زهدا فى هذه الحياة، وتعففا عن متاعها الزائل، إلى أن تشاء الأقدار بتغيير الأحوال،وتحقيق الآمال.

العامل الاجتماعى:

نستطيع أن نقرر أن من بين أسباب لجوء ابن المبـــارك إلـــى عالم الزهد والتصوف، الميل الفطرى أولا، ثم الوضـــع الاجتمـــاعى المشترك بين بلده الأصلى (فارس)، وبين العصر العباسى الذى عاش فيه، أما عن المجتمع الفارسى فقد "عرف بالميل الجـــارف للأنـــس والطرب، والحب الشديد للمرح المشوب بالرقة والليونة"(١)، وأما عن المجتمع العباسى، فقد كان المجال الزراعى والتجارى والصناعى يدر على الدولة دخلا وفيرا أدى إلى حياة الرفه والبذخ اللذين ماج فيهما الخلفاء والأمراء والولاة، وبالغوا فى ذلك حتى جاوزوا حـــد البطـــر والشره فى شئون الحياة بعامة، وفى حفلات الزواج بخاصة، ها هو ذا الخليفة (المأمون) ينفق على زواجه من (بوران) ما يفوق أغـــرب القصص الخيالية "لدرجة أنه بسط لها حصيرا منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت، فضلا عن الآلاف المؤلفة من الدراهم والدنانير التى وهبها إياها هو ووالدته"(٢) ، أما زواج المعتضد بقطر النـــدى "فقـــد أصدقها ألف ألف درهم، ويقال : إنها حملت معها من الجواهر ما لم يجتمع مثله عند خليفة قط، حتى بلغت نفقات زواجها أربعمائة ألـــف دينار"(٣) كما أرسل معها والدها (خمارويه) "ألف ألف دينار، وخمسين ألف دينار؛ لتشترى بها من العراق ما ليس بمصر مثله"(٤).

---

(١) قصة الأدب فى العالم: ١/ ٤٤٥ بتصرف .

(٢) بتصرف ــ مروج الذهب: ٤/ ٣٠، الكامل فى التاريخ: ٦/ ٣٩٥، ٣٩٦ .

(٣) النجوم الزاهرة: ٣/ ٥٣ بتصرف .

(٤) البداية والنهاية: ١١/ ٧١، ٧٢ .

بذخ ما بعده بذخ، وشره ما بعده شره، حكام وولاة وأمراء يعيشون فقط لأنفسهم، ضاربين بالشعب البائس عرض الحائط، كل همهم التفنن فى حرمانه من تلك الآلاف المؤلفة التى اكتظت بها خزائنهم، دون أدنى مبالاة بالخوف من الله، متغافلين عن كون مصير كل ذلك إلى الزوال، بما فيه المال ومن استخلفه الله على هذا المال، ولذلك ندهش حين نعلم أن الخليفة المنصور "خلف حين توفى أربعة عشر مليونا من الدنانير، وستمائة مليون من الدراهم"(١) أما الرشيد فقد ترك "تسعمائة مليون درهم"(٢) كما وجدوا فى خزانة المكتفى "مائة مليون دينار"(٣) ، أما مجالس اللهو والغناء فحدث ولا حرج، حيث كانوا "بالغناء مغرمين، وبالجوارى مفتونين"(٤)، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد الترف إلى معظم الطبقات ذات الوجاهة من وزراء وكتاب وأدباء، حتى شمل طبقة الجوارى اللائى جارين الحرائر فى مظاهر البذخ، إذ "كن يلبسن ثياب السندس والإستبرق والوشى النفيس من كل لون، وكن يتحلين بالجواهر من كل صنف، وكن يتخذن منها تيجانا وعقودا وأقراطا وخلاخيل، ويضعنها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن"(٥).

نحن إذن أمام مجتمع صاخب ماجن لاه مترف، أقلية مترفة باغية تتحكم فى أكثرية بائسة محرومة من أبسط حقوقها، ومن ثم لم تجد مفرا من هذا المناخ الطاغى سوى اللجوء إلى عالم الزهد فى الحياة وملذاتها، والإقبال بشغف على الآخرة ونعيمها، ففى هذا خير غناء، وما عند الله أبقى يوم اللقاء.

(١) مروج الذهب: ٣/ ٣١٨ .
(٢) تاريخ الطبرى: ٦/ ٥٤٤، الكامل فى التاريخ: ٦/ ٢١٤ .
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى: ٥/ ١١٨ .
(٤) الأغانى : ١٥/ ١٢٢ وما بعدها .
(٥) العصر العباسى الثانى: ٧٣ .

العامل الدينى:

إثر التطور الهائل الذى حظيت به الدولة العباسية نتيجة لامتزاج العنصر العربى بالفارسى "اتسعت الحضارة، وبدت شرور مظاهرها المادية التى انبهر الناس بها وانكبوا عليها"(١) ، فانحرف بعض المسلمين عن الدين القويم، وانغمسوا فى الملذات نتيجة لتلك العوامل الموجهة التى أثرت فى حياتهم وفى سلوكياتهم٠

وقد أخذ هذا الانحراف مظاهر عدة كان من أبرزها "الإفراط فى الشعر الماجن والمبالغة فيه"(٢)، وكذلك "المزج بين عقيدة التوحيد والمانوية"(٣)، و"الاندفاع إلى الزندقة، والخروج عن ربقة الإيمان"(٤)، و"كان ذلك فى أوائل العصر العباسى وبالتحديد فى عهد الخليفة المهدى"(٥)، كما بدت الشعوبية فى أقبح صورها بدعوتها المزعومة إلى التعصب للجنس، والتفرقة بين البشر ، وهذا ــ بلا ريب ــ يخالف منهج الإسلام، فالله سبحانه خلق جميع "الناس وجعلهم سواء

---

(١) التوجيه الأدبى: ١٨٠، ١٨١ ٠

(٢) حركة التجديد فى الشعر العباسى: ١١٣ ٠

(٣) فى الأدب العربى القديم: ٣٤٠، والمانوية: مذهب تزعمه (مانى) وقد مزج فيه بين النصرانية والزرادشتية والبوذية، فأخذ من النصرانية، الزهد والتنسك، ومن الزرادشتية، وجود إلهين للعالم: إله النور وجعله رمزا للخير، وإله الظلمة وجعله رمزا للشر، وأضاف إلى ذلك استباحة الزواج بالبنات وبالأخوات،كما أخذ من البوذية عقيدة التناسخ، وتحريم ذبح الطيور والحيوانات ــ فى الأدب العباسى ــ العصر الأول: ٧٦ بتصرف ٠

(٤) الشعر والشعراء فى العصر العباسى : ٢١٠ ــ الزندقة: كلمة فارسية الأصل، ومعناها المارق المنحرف عن المنهج القويم، والزنادقة مشركون؛ لاعتناقهم المجوسية التى تزعم وجود إلهين للكون: أحدهما للخير، والآخر للشر ــ الأدب الصوفى: ٣٥ بتصرف ٠

(٥) الأدب الصوفى: ٣٥ ٠

كأسنان المشط"[1]، وأنه لا تفاضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، تصديقا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[2].

كانت النتيجة الطبيعية لهذا كله، أن هذا الغلو والتطرف فى جانب من جوانب السلوك لدى البعض، قابله غلو وتطرف لدى البعض الآخر، وكان رد الفعل الحتمى لذلك ممثلا فى وجود ظاهرة الزهد من خلال "الانعقاد لمجالس الوعظ بالترغيب فى الإقبال على الله، والترهيب من ماديات الحياة وزخرف الحضارة، والعقاب الأليم من الله سبحانه"[3]، من هذا المنطلق اكتظت المساجد "بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع، ومن حول هؤلاء جميعا يجلس العامة؛ للاستفادة من أحاديثهم"[4].

وكان من أبرز هؤلاء الوعاظ: "سفيان بن عيينة، وسفيان الثورى، اللذان كانا يكثران من إنشاد الشعر فى وعظهما؛ كى يقدموا لمعاصريهم مادة واسعة ليصوغوا مواعظهم على نمطها"[5]، لكن الأمر العجيب واللافت للنظر، أن هذه النزعة المضادة لم يختص بها الشعراء الزهاد فحسب، "بل شملت عتاة الماجنين والعابثين الذين عضوا أصابع الندم؛ حسرة على ما فرطوا فى جنب الله، أمثال: أبىنواس، وأبىالعتاهية، ومسلم بن الوليد، وصالح بن عبدالقدوس، ومحمد بن يسير الرياشى، وغيرهم"[6].

العامل الثقافى :

---

(١) نكت الأمثال: ٧٥ بتصرف .
(٢) الحجرات : ١٣ .
(٣) التوجيه الأدبى: ١٨٠، ١٨١ بتصرف .
(٤) العصر العباسى الأول: ٣٩٩ بتصرف .
(٥) العصر العباسى الأول: ٤٠٠ بتصرف .
(٦) حركة التجديد فى الشعر العباسى: ١١٣ بتصرف .

من المعروف أن رقعة الدولة العباسية كانت واسعة، ومن ثم كانت مسرحا لغير القليل من الفئات والطوائف، وامتزاج الكثير من العناصر والأجناس البشرية بها، تلك الأجناس التى برعت فى شتى صنوف المعرفة والثقافة، وقد أدى هذا كله إلى الرقى الحضارى الذى كان من أبرز مظاهره، وجود نهضة علمية على أوسع نطاق فى مختلف الثقافات الفارسية واليونانية ، والهندية ، هذا بالإضافة إلى التشجيع الملحوظ من قبل الخلفاء للمترجمين؛ والذى كان إثراء لهذه النهضة الفكرية، والحركة العلمية، وليس أدل على ذلك من (الرشيد) الذى نشطت حركة الترجمة فى عهده نشاطا واسعا، والفضل فى ذلك يرجع إليه، وإلى وزرائه من البرامكة، "فقد أنشأ (دار الحكمة)، وخصص لها عددا كبيرا من المترجمين، أمثال: (يوحنا بن ماسويه)، أما (يحيى بن خالد البرمكى) فقد أعاد ترجمة العديد من الكتب وبخاصة كتاب (المجسطى) لبطليموس؛ ليكون أكثر دقة وإتقانا"[١]، أما الخليفة (المأمون) فقد بلغ مدى تشجيعه لتلك النهضة الفكرية أن كان يهب كل مترجم "زنة ما يترجمه ذهبا، وقد فعل ذلك مع حنين بن إسحاق"[٢]، ولا نغفل فى هذا المقام "صناعة الورق وما كان لها من اليد الطولى فى كثرة المطابع والوراقين والنساخين، وكل ما أدى إلى هذا النشاط الفكرى والرواج الثقافى"[٣].

كانت النتيجة والثمرة لكل هذه الجهود، أن "كثرت المؤلفات فى كل شىء، وتفرعت العلوم، حتى إنه يمكن القول: بأنه ــ فى هذا العصر ــ وضعت أسس جميع العلوم تقريبا"[٤]، وأيا كان الأمر، فقد نما الزهد وازدهر وسط هذا المناخ العلمى، ووجد الزهاد ضالتهم فى

(١) الفهرست: ٧/ ٣٢٧ بتصرف .
(٢) تاريخ التمدن الإسلامى: ٣/ ١٤٣ .
(٣) صبح الأعشى: ٢/ ٤٧٦ ، ٤٧٧ بتصرف .
(٤) ضحى الإسلام: ٢/ ٣ بتصرف .

تلك الكتب المترجمة الملأى بشتى ألوان الحكم، ومختلف صنوف الآداب التى برع فيها ذلك الرعيل من علماء الفرس، وحكماء الهند، وفلاسفة اليونان.

هذا عن حقيقة الزهد، والعوامل التى تفاعلت من أجل نضجه وازدهاره، بقى أن نتعرف ــ فى عجالة ــ على درجات الزهد، وعلاماته، وسمات أصحابه.

أما عن درجاته فهى أربع درجات حسب المرغوب فيه والمرغوب عنه، كما نلحظ من خلال هذا التقسيم التصاعدى: "زهد الخائفين، وزهد الراجين، وزهد العارفين، والزهد المطلق، أما زهد الخائفين فهو الزهد الذى يرهب صاحبه النار وسائر الآلام، وهذا النوع يمثل الدرجة الدنيا لدى أهل التصوف، وأما زهد الراجين، فهو أعلى درجة من السابق، وهو الذى يرجو صاحبه الظفر بثواب الآخرة، وبالنعيم المقيم فيها، وأما زهد العارفين فهو أعلى درجة من زهد الراجين، وهو النوع الذى يمارسه العارفون المحبون لله سبحانه لذاته، لا رغبة فى نعيم جنته، ولا رهبة من عذاب ناره، وأما الزهد المطلق فهو الزهد فى الزهد نفسه، وهو ــ بهذا الاعتبار ــ يمثل أعلى الدرجات التى يرحل فيها صاحبها عن الزهد ، ويرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس نفسها بحيث لا يحب إلا الله وحده"[1].

وأما عن علاماته فهى ثلاث: "ألا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك، وأن يستوى عنده ذامه ومادحه، فالأول علامة الزهد فى المال، والثانى علامة الزهد فى

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٢١٧ ، ٢٢٥، ٢٢٦ بتصرف .

الجاه، وأن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه هو حلاوة الطاعة، ومتعة العبادة"[١].

وأما عن سمات أصحابه فها هو ذا (ابن المبارك) يصفهم بمدى الزهد فى هذه الدنيا، وكأنهم ــ لقصر عمرها، وحتمية انتهائها ــ على سفر دائم، يبغون المضى والانتقال؛ لأنها دار فناء وزوال، ولهذا عفوا عن الآثام، واشتد خوفهم من لقاء الواحد العلام، حيث يقول من بحر البسيط[٢]:

مستوفدين على رحل كأنهم ∴ ركب يريدون أن يمضوا وينتقلوا
عفت جوارحهم عن كل فاحشة ∴ فالصدق مذهبهم والخوف والوجل

وفى مقام آخر يفصل لنا البرنامج اليومى لهم فيقول من بحر الوافر[٣]:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ∴ فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ∴ وأهل الأمن فى الدنيا هجوع
لهم تحت الظلام وهم سجود ∴ أنين منه تنفرج الضلوع
وخرس بالنهار لطول صمت ∴ عليهم من سكينتهم خشوع

يلاحظ مدى حرصه على وصف برنامجهم اليومى صباحا ومساء، فإذا ما أشرق الصباح خرجوا إلى العمل، وقضوا النهار كله فى صمت طويل لدرجة الخرس، لا يخوضون فى الباطل، ولا يغتابون أحدا، فإذا تكلموا لا يتكلمون إلا بخير؛ اقتداء به (ﷺ) حيث قال: "من كان يؤمن بالله فليقل خيرا أو ليصمت"[٤] ، فإذا ما جن الليل وعمهم الظلام، شمروا عن سواعد الجد وتعبدوا باهتمام، وقضوه فى خشوع وخضوع، وقد أكثروا لله السجود والركوع، ولهم أنين تكاد تنفطر

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٢٤١ .
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٦ .
(٣) المصدر نفسه: ١١، عبدالله بن المبارك: ٤٢ ــ كابدوه: قاسوا شدته،يسفر:يوضح ويكشف،الهجوع:النوم الخفيف أول الليل، الأنين: التأوه من ألم بالمريض ــ المعجم الوجيز:٢٨، ٣١٢، ٥٢٤، ٦٤٥
(٤) رياض الصالحين: ٣٢٨ .

منه الضلوع، وها هو ذا (الحسن البصرى)[1] يؤكد ذلك بأنهم "قوم كانوا ــ إذا جنهم الليل ــ قياما على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجرى دموعهم على خدودهم، فضلا عن إكثارهم من تلاوة القرآن الكريم، وذكر الله وتسبيحه، ومناجاته فى فكاك رقابهم"[2].

إذا بحثنا عن السبب فى هذا كله، وجدناه يتمثل فى مدى الرهبة والخوف من الله، فهم دائما فى وجل شديد وأنين وبكاء، ومن ثم منعوا راحة النوم والهناء؛ كى يحظوا بالأمن يوم اللقاء، فإن من خاف الله فى الدنيا، أمنه يوم الحساب والجزاء، هذا ما يؤكده أبوهريرة (ﷺ) فيما يرو يه عن النبى (ﷺ) عن ربه (جل وعلا) أنه قال: "وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين، إذا خافنى فى الدنيا، أمنته يوم القيامة ، وإذا أمننى فى الدنيا، أخفته فى الآخرة"[1].

تلك كانت سمات الزهاد كما لخصها (ابن المبارك): بغض للدنيا، وزهد فى الشهوات، وعفة عن السيئات ، وقد أورثهم ذلك كله، حبا للخلوات، وخشية فى كل الأوقات، وهكذا ديدن (ابن المبارك) ، "كان كثير الانقطاع، محبا للخلوة"[2]، ذاكرا لربه بشتى ألوان الطاعات بعامة، والمدارسة لسنة رسول الله (ﷺ) بخاصة، فكثيرا ما "كانت له خلوات علمية، يستأنس فيها بحديث رسول الله (ﷺ) ، يجلو به صدأ القلب، وينشد الطمأنينة والرضا، ويلتمس

(١) هو الحسن بن يسار البصرى أبوسعيد، تابعى، ولد بالمدينة المنورة: ٢١هـ، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء النساك الشجعان، كان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف فى الله لومة لائم ، توفى بالبصرة: ١١٠هـ ــ الأعلام: ٢/ ٢٤٢، حلية الأولياء : ٢/ ١٣١ .

(٢) بتصرف ــ إحياء علوم الدين: ٤/ ٢٢٥، فصول فى الشعر ونقده: ١٩٧ ــ ١٩٩ .

مواضع العظة والعبرة، وبخاصة إذا قرأ كتاب الزهد[٣]، وكتاب الرقاق[٤]، فإذا ما عثر على ضالته، وانفعلت بها نفسه، انخرط فى شدة الأنين، ونهاية البكاء، حتى يصير كأنه ثور قد ذبح، أو بقرة منحورة، لا يقدر أن يتكلم، ولا يجترئ أحد ــ وهو فى هذه الحال ــ أن يدنو منه، أو يسأله عن شىء إلا دفعه"[٥].

هذا إن دل فإنما يدل على مدى الخشية ونهاية المراقبة لله، ومما يعضد ذلك أنه "قال يوما لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيره، فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عزوجل"[٦]، وكثيرا ما كان يركز فى نصائحه لأحبابه، ولاسيما العلماء منهم على هذا النوع من المراقبة، كقوله: "أكثركم علما ينبغى أن يكون أشدكم خوفا"[٧]، من ثم، كانت تلك النصائح الصا دقة المخلصة سببا فى النجاة من عقاب الله، على نحو ما حدث (لسهيل بن على) [٨]، الذى سأله بعضهم فى الرؤيا إثر موته: "ما فعل بك ربك، قال: نجوت بكلمة علمنيها (ابن المبارك) وهى قول الرجل: يا رب عفوك عفوك"[٩].

إثر هذه السياحة الروحية، والإضاءة العلمية، حول ماهية الزهد، وأسبابه، ودرجاته، وعلاماته، وسمات أصحابه، هل من

---

(١) الترغيب والترهيب: ٤/ ٢٦١ .
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٣٢ .
(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ٢١٦ ــ ٢٤٣ .
(٤) فتح البارى: ١١/ ٢٣٣ ــ ٤٥٨ .
(٥) بتصرف ــ تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٧، التذكرة : ١/ ٢٧٨، عبدالله ابن المبارك: ٣٠، والإمام الربانى الزاهد: ٢٩ ، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٩ .
(٦) عبدالله بن المبارك: ٢٦ .
(٧) حلية الأولياء : ٨/ ١٦٨ .
(٨) لم أعثر له على ترجمة .
(٩) حلية الأولياء: ٨/ ١٧١ .

إضاءة أخرى حول شخصية (ابن المبـــارك) بخاصـــة، وأثـــر تلـــك الشخصية فى شعره بعامة، ذلك ما يسفر عنه المبحث الأول من تلك الدراسة .

المبحث الأول
شخصية ابن المبارك وأثرها فى شعره(*)

لكى نتعرف بشىء من التفصيل على تلك الشخصية المتعددة المواهب، ينبغى استعراض الجوانب الآتية:

التعريف به:

هو عبدالله بن المبارك بن واضح، كنيته أبوعبدالرحمن، أحد تابعى التابعين الأجلاء، فارسى الأصل، من سكان خراسان، تركى الأب، خوارزمى الأم، تميمى، حنظلى ولاء، نسبة إلى (بنى حنظلة) وهم جماعة من (غطفان)، "ولد: ١١٨هـ"(١) وكان سنيا متبعا معتدلا، ينفر من أهل البدع وعلى رأسهم (الجهمية) الذين ينتقصون

(*) تراجع حياته وأخباره بالتفصيل فى: تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢ ــ ١٥٩، تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧٤ ــ ٢٧٩، تهذيب التهذيب: ٥/٣٨٤ ــ ٣٨٧، والنجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٣ ــ ١٠٤، حلية الأولياء: ٨/١٦٢ ــ ١٩٠، وشذرات الذهب: ١/ ٢٩٥ ــ ٢٩٧، والعصر العباسى الأول: ٤٠٢ ــ ٤٠٦، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٢ ــ ٣٤، والأعلام: ٤/ ٢٥٦ ــ ٢٥٧، أدب الزهد فى العصر العباسى: ٤١ ــ ٤٦، فى الأدب الإسلامى: ١٦٧ ــ ١٦٩، عبدالله بن المبارك ــ عالم الشرق والغرب وما بينهما ــ كتيب دون الخمسين صفحة، الإمام الربانى الزاهد عبدالله بن المبارك ــ كتيب دون المائتى صفحة، الورقة: ١٥ ــ ١٧، صفة الصفوة: ٤/ ١٠٩، المعارف: ٥١١، مرآة الجنان: ١/ ٣٧٩ ــ ٣٨٢، العبر فى خبر من غبر: ١/٢١٧، طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٥ ــ ٢٨٧، البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٧ ــ ١٧٩، معجم البلدان: ٥/ ٤٢٠، ٤٢١، الأنساب: ٤/ ٢٥١، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٣٦ ــ ٣٧١ .

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٧ ، النجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٣، العصر العباسى الأول: ٤٠٣، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٣، ١٥٤، الأعلام: ٤/ ٢٥٦، الإمام الربانى: ١٩، التذكرة: ١/ ٢٧٥، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٤، المعارف: ٥١١، الأنساب: ٤/ ٢٥١، سير أعلام النبلاء: ٨/٣٣٦ ــ ٣٣٨ .

من أهل السنة"[1]، ويوقر الخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين، مؤكدا شرف انتسابه للإسلام بقوله من بحر البسيط[2]:

إنى امرؤ ليس فى دينى لغامزة ∴ لين ولست على الأسلاف طعانا
فلا أسب أبا بكر ولا عمرا ∴ ولا أسب معاذ الله عثمانا
ولا أقول على السحاب لقد ∴ والله قلت إذا جورا وعدوانا
ولا أقول لأم المؤمنين كما ∴ قال الغواة لها زورا وبهتانا
ما يعلم الله من قلبى مشايعة ∴ للمغضبين عليا وابن عفانا
إنى لأمنحهم بغضى علانية ∴ ولست أكتمهم فى الصدر كتمانا
ولا أقول بقول الجهم إن له ∴ قولا يضارع أهل الشك أحيانا
ما قال فرعون هذا فى تجبره ∴ فرعون موسى ولا هامان طغيانا
لكن على ملة الإسلام ليس لنا ∴ اسم سواه بذاك الله سمانا

الشاعر يعيش تجربة قوية عميقة ، تتمثل فى مدى إخلاصه للخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين، ونهاية بغضه لمن يغضون من شأن هؤلاء أجمعين، ها هو ذا يستعين على إبراز تجربته، وتعميق فكرته بنوعين من الأساليب:

أولا ــ أساليب التوكيد، وتتمثل فى قوله: (إنى امرؤ، إنى لأمنحهم) كى يقرر ويعمق فى الأذهان مدى إصراره على مبدئه فى التبجيل للخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين من جهة، ونهاية بغضه للمتحاملين عليهم من جهة أخرى.

ثانيا ــ أساليب النفى، وتتمثل فى قوله: (ليس فى دينى لغامزة، لست على الأسلاف طعانا، لا أسب، لا أقول، لست أكتمهم ــ ما قال فرعون ولا هامان ، ليس لنا اسم سواه)؛ كى يدفع عن نفسه شبهة الطعن فى منزلة هؤلاء الأجلاء، وأن فرعون وهامان ــ على تجبرهما ــ لم يقدما على هذا الأمر الجسيم، من ثم كان الأحرى به

(١) حلية الأولياء : ٨/ ١٦٧ ، ١٦٨، الإمام الربانى الزاهد: ٢٨، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٦٣ .
(٢) بتصرف ــ الموسوعة الشعرية: ٢١، طبقات الشافعية الكبرى: ٢٨٧/١، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٥، ٣٦٦ .

أن ينأى عن ذلك وهو المنتسب للإسلام العظيم، وها هو ذا يؤكد ذلك بالجمل الاعتراضية كقوله: (معاذ الله) فى البيت الثانى، والقسم بلفظ الجلالة (والله) فى البيت الثالث، وقوله: (ليس لنا اسم سواه) فى البيت الأخير.

ليس هذا فحسب، بل يحرص على التكثيف من عمق الفكرة والتجربة، والتقرير لهما فى النفوس، من خلال الاستخدام للتعبيرات الموحية: ففى قوله: (ليس فى دينى لغامزة) إيحاء بمدى نقاء وصفاء تدينه الخالص، وأنه لا تشوبه أدنى شبهات، تنال من الصالحين والصالحات، ومما يعضد ذلك ، هذا التكرير الذى نلحظه ثلاث مرات فى قوله: (ولا أقول)، وفى قوله: (على فى السماء) إيماء إلى معتقد الشيعة الذين يتعصبون للإمام دون سواه من الخلفاء، وفى هذا إيحاء بأن الجميع أمامه فى درجة الحب سواء، دون تفرقة أو استثناء، وفى قوله: (ما يعلم الله) لا يريد نفى العلم عن الله، حاشاه أن يكون من هؤلاء، وتعالى الله عن ذلك، إنما يريد الإيماء إلى مدى استحالة تشيعه لهؤلاء المبغضين للخلفاء، وإن كان كذلك فالله لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، كما تبدو براعته فى دقة التعبير بالمنح فى قوله: (إنى لأمنحهم بغضى) من المقرر والمعلوم أن المنح يعنى العطاء بما يعود على الغير بالخير، بيد أنه آثر أن يكون المنح هنا بغضا، وفى هذا إيحاء بأن كراهيته لهؤلاء ليست بالأمر العارض أو المتكلف، وإنما هى أمر غريزى فطرى جبل عليه بحكم إخلاصه الشديد، وإيمانه القوى، وفى التعبير بقوله: (فى تجبره) إيماء إلى مدى درجة الجرم التى بلغها هؤلاء فى كل زمان، بادعائهم على الخلفاء ما استحيا منه فرعون وهامان.

إثر هذا كله، لا يفوتنا التنويه بمدى براعته فى إيثاره بحر البسيط بإيقاعاته السريعة، وحرف النون قافية له، بجهره وقوته،

وحركة الفتح للقافية، باستعلائه وشدته؛ ليتواءم ذلك كله مع عمق التجربة التى عاشها، وجلال الفكرة التى عمد إليها.

وبما أنه مهموم بشدة البغض لهؤلاء ، فقد حرص على الإتيان بألفين: الأولى قبل القافية؛ لتسمح بتفريغ شحنة الغضب التى تمور بين جوانحه، وتساعد على خروج أكبر قدر من الزفرات المتلاحقة، لعل ذلك يخفف من أشجانه وآلامه، والثانية بعد القافية للإطلاق، وكأنه استشعر إثر هذا كله أنه غير كاف فى الإفصاح عما يعانيه، والترجمة لعاطفته المتدفقة، فأتى بهذه الألف؛ كى يظل دوى صوته مستمرا ومتصلا حتى يعلق بكل الأذهان، ويطرق سمع المتلقى فى كل زمان ومكان، ولكى يزيد الفكرة جلاء ووضوحا وترسيخا فى الأعماق حرص على الموسيقى الداخلية التى تتمثل فى: الطباق بين (اللين والتجبر، والعلانية والكتمان، والمشايعة والبغض) والإجمال الذى نلحظه فى مستهل الأبيات، ثم التفصيل فيما تلاه من أبيات، وأخيرا حرصه على ضرب النماذج والأمثلة بالجهمية وبفرعون، وبهامان؛ كى يؤكد تقرير فكرته فى الأذهان.

هكذا يتحقق لدينا مد إخلاص ابن المبارك للخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين، وشدة بغضه لمن رماهم بالإثم المبين، ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام، أنه قبل أن يكون (ﷺ) من الزهاد، كان من العلماء الأجلاء الذين جابوا الآفاق "فى مصر والشام والحجاز واليمن والبصرة والكوفة؛ طلبا للعلم، وحثا عليه"[1]، وقد أخذ عن أئمة الشيوخ، أمثال: "مالك ابن أنس، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثورى وغيرهم"[2] وكان يرى "ألا يتكالب العالم على

(١) بتصرف ــ حلية الأولياء: ٨/ ١٦٥، التذكرة: ١/ ٢٧٥، تهذيب الأسماء: ١/ ٢٨٦، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٤، شذرات الذهب: ٢٩٥/١، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٣٨ .

(٢) بتصرف ــ التذكرة: ١/ ٢٧٥، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢، وتهذيب الأسماء: ١/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

حطام الدنيا، وألا يبخل بعلمه حتى لا يبتلى بالنسيان، أو التصحيب[١]، أو الموت فيذهب علمه"[٢] وكان الإمام (أبوحنيفة) مثله الأعلى فى ذلك .

ها هو ذا يثنى عليه قائلا من بحر الوافر[٣]:

رأيت أبا حنيفة كل يوم ∴ يزيد نباهة ويزيد خيرا
يقايس من يقايسه بلب ∴ فمن ذا يجعلون له نظيرا
كفانا فقد حماد وكانت ∴ مصيبتنا به أمرا كبيرا
فرد شماتة الأعداء عنا ـ ∴ وأبدى بعده علما كثيرا

نلحظ على الشاعر مدى هيامه وشدة إعجابه بهذا الإمام الجليل الذى عم الآفاق بعلمه الغزير، ومن ثم كان الإيثار لبحر الوافر بما فيه من وفرة حركاته، وكثرة أوتاده، وبكون القافية (حرف الراء) وما يتسم به من جهر وشدة، كما آثر أن تكون حركتها (الفتح) بما فيه من معانى الاستعلاء والقوة؛ كى ينسجم هذا كله مع تلك العاطفة القوية التى استولت على الشاعر من جميع الأقطار؛ إعجابا بهذا العالم الذى دوى صيته فى الحواضر والقفار .

ونلحظ أيضا مدى براعته فى سبقه القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يسمح له بإفراغ هذه الشحنة من الإعجاب والتقدير لهذا الإمام القدير، ولشدة حرصه على مشاركة الآخرين له فى هذا الإعجاب، أتبع القافية بحرف الإطلاق (الألف)؛ كى يظل دوى نبرة الإعجاب متصلا باستمرار، حتى يبلغ جميع الأقطار، وها هو ذا يوائم بين

(١) يقال: رجل مصحب أى مجنون ــ لسان العرب: ٤/ ٢٤٠١ .
(٢) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٥، ١٦٧، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥٣ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ٨ بتصرف ــ حماد بن زيد: هو أحد أئمة الحديث، وكان ثقة، يحفظ أربعة آلاف حديث، وكان رابع أربعة من الأئمة الأجلاء: الثورى بالكوفة، والأوزاعى بالشام، ومالك بالحجاز، ثم حماد بالبصرة، توفى ١٧٩هـ، ــ بتصرف ــ العبر: ١/٢١١، ٢١٢، البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٤ .

الموسيقى الظاهرة والخفية من خلال الجناس الناقص بين (كبيرا وكثيرا)، وحسن التعليل فى البيت الأخير الذى يفصح فيه عن سر الإعجاب بهذا الإمام، الذى جابه شماتة الأعداء إثر فقد حماد، بغزارة علمه الذى عم الأصقاع والبلاد.

كما نلحظ مدى حرصه على جلاء فكرته، والنقل الأمين الصادق لعاطفته، وذلك من خلال اللجوء إلى التعبيرات الموحية: فالتكرير للفعلين (يزيد، يقايس) والإيثار لهما بالمضارعة، إيماء إلى أن شدة عبقريته، ومدى قدرته على الجدل، أمران يتجددان باستمرار على مدى الأيام، وكر الدهور والأعوام، وها هو ذا يؤكد ذلك بأمرين: بلفظ العموم (كل)، وبإيثاره (حرف الراء) قافية له؛ للإيحاء بهذا التكرير، لكل الحجج والبراهين التى نلمسها فى علمه الغزير، كما حرص أيضا على تنكير بعض الكلمات، ففى قوله: (لب) إيماء إلى مدى التعظيم لهذا الإمام الذى أفعم قلبه بجلال الإيمان، وشدة الإخلاص للعلم الذى منحه الله إياه، وفى قوله: (أمرا) إيماء إلى التفخيم والتهويل من فقد العالم الجليل (حماد بن زيد)، وليس أدل على ذلك من إيثاره التعبير عن خلو الساحة إثر رحيله بالمصيبة، وكان من فضل الله على الأمة أن يرثه (أبوحنيفة) بما من الله عليه بالعلم الغزير، حتى عز أن يوجد له الشبيه والنظير، ومن ثم كان هذا الاستفهام (فمن ذا يجعلون له نظيرا؟) للإيماء إلى مدى تعجبه، وشدة استنكاره باستحالة أن يوجد ند لأبىحنيفة النعمان، إثر فقد حماد من الميدان.

هكذا كان تقدير(ابن المبارك)للعلم وللعلماء؛لأنه كان أيضا من هؤلاء الأجلاء، وبالإضافة إلى ذلك كان من المحدثين المؤهلين لنشر السنة بفضل نعمة الإخلاص، وقوة الحفظ، والدقة فى التثبت: سئل يوما عن كثرة خلوته بداره: "ألا تستوحش؟ فقال:كيف وأنا مع النبى

(ﷺ) وأصحابه،أنظر فى علمهم"[١]،وسمع يوما "خطبة طويلة، فأعادها على الحضور حرفا حرفا"[٢]،وهدده والده يوما بحرق كتبه، فقال له: "وما على من ذلك وهى فى صدرى"[٣]،وكان المتخصصون فى الحديث "إذا طلبوا الدقيق من المسائل فلم يجدوه فى كتبه أيسوا منه"[٤]،ولا غرو! فهو "فى علم الحديث كأمير المؤمنين فى الناس، وهو السيد من سادات المسلمين،وهو الطبيب الإمام الحجة الثقة الثبت العالم بصحيح الحديث الشريف"[٥]وحسبه أنه جمع "عشرين ألف حديث"[٦].

وكان أيضا فقيها، تلقى الفقه على "أبىحنيفة، ومالك، وسفيان الثورى"[٧] وهؤلاء العلماء وغيرهم "شهدوا ببراعته فى هذا المجال حتى غدا من أفقه الناس"[٨]، وكان أكثر تأثرا بأبىحنيفة الذى زهد

---

(١) بتصرف ــ تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٤، حلية الأولياء: ٨/ ١٦٤، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٣٩، ٣٥٣ .

(٢) بتصرف ــ الأعلام: ٤/ ٢٥٦، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٥، ١٦٦، عبدالله بن المبارك: ٣٣، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٨ .

(٣) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٦، التذكرة: ١/ ٢٧٧، عبدالله بن المبارك: ٣٣، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٨ .

(٤) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٦، التذكرة: ١/ ٢٧٦، عبدالله بن المبارك: ٣٤، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٠ .

(٥) بتصرف ــ تاريخ بغداد١٠/١٥٦، ١٦٦،تهذيب الأسماء:١/٢٨٦، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، التذكرة: ١/ ٢٧٦، عبدالله بن المبارك: ٣٢، ٣٤، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٧ .

(٦) شذرات الذهب: ١/ ٢٩٥، التذكرة: ١/ ٢٧٦ .

(٧) شذرات الذهب: ١/ ٢٩٦، النجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٣، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٢، الإمام الربانى: ٢٣، عبدالله بن المبارك: ٣٤، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٧١ .

(٨) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، ٣٨٧، عبدالله بن المبارك: ٣٣، العبر: ١/ ٢١٧، الورقة: ١٥، تهذيب الأسماء: ١/ ٢٨٥، التذكرة: ٢٧٨/١، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٤، حلية الأولياء: ١٦٣/٨، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٧ .

الدنيا بكل متاعها وزخرفها دون أن تصرفه عن مدى براعته فى علم الفقه الذى عم نفعه المسلمين جميعا ولم ينافسه أحد فى ذلك، ها هو ذا يسجل مدى إعجابه بأستاذه، منوها إلى رأى الإمام الشافعى فيه، حيث يقول من بحر الوافر[1]:

لقد زان البلاد ومن عليها ∴ إمام المسلمين أبوحنيفة
فما فى المشرقين له نظير ∴ ولا فى المغربين ولا بكوفه
وقد قال ابن إدريس مقالا ∴ صحيح النقل فى كلم لطيفة
فإن الناس فى فقه عيال ∴ على فقه الإمام أبىحنيفة

ما زال الشاعر تحت سيطرة العاطفة القوية تجاه أستاذه فقيها، بعد أن أشاد به قبل ذلك عالما، وتأكيدا لهذه الدرجة الفائقة من الإعجاب، آثر بحر الوافر بما فيه من وفرة الحركات والأوتاد التى تتواءم مع كثرة المعانى التى يريدها الشاعر، وحرك القافية بالفتح بما فيه من استعلاء؛ ليتناسب كل ذلك مع هذه الدرجة من الإعجاب، وقوة العاطفة، وإذا كان قد آثر سبق القافية بحرف المد؛ كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة الهائلة من الإعجاب، فقد أتبعها بهاء السكت، إيماء منه إلى مدى الحسم والجزم بهذا الرأى القاطع الذى لا يحتمل أدنى تردد فى قدرة أستاذه، هذا ولشدة حرصه على التوافق بين الموسيقى الخارجية والداخلية، لجأ إلى الطباق بين (المشرقين والمغربين)، والتفصيل بعد الإجمال فى البيتين الأخيرين، وفى هذا ما فيه من التوضيح لفكرته، والإبراز لتجربته.

(١) بتصرف ــ الموسوعة الشعرية: ١٣، عبدالله بن المبارك: ٤٣ . يلاحظ تورطه فى (الإيطاء) بتكرير كلمة (أبوحنيفة) بلفظها ومعناها، حيث فصل ببيتين فقط، والمفروض "أن يكون الفصل بسبعة أبيات على الأقل، فكلما تباعد كان أخف" فن القريض: ١٠١، ١٠٢ ، فضلا عن لجوئه إلى (سناد الحذو) فى بيتين متتاليين لكلمتى الروى (أبوحنيفة ــ بكوفة).

ولكى يزيد هذه الفكرة جلاء، آثر تلك التعبيرات الموحية: ففى قوله: (لقد زان، وقد قال) أسلوبا توكيد؛ للإيماء إلى أن منزلة (أبىحنيفة) فى نفوس الناس بعامة، والشافعى بخاصة، أمر محقق وثابت لا يختلف عليه منصفان، وفى قوله: (فما فى المشرقين، ولا فى المغربين، ولا بكوفة) ثلاثة أساليب نفى تؤكد مدى تفرد هذا الإمام بفقهه دون أن ينازعه أحد فى ذلك، وها هو ذا يعضد ذلك ويؤكده تارة بأسلوب التوكيد الذى يشبه الناس فيه ــ فى مجال الفقه ــ بأنهم عيال ، وذلك فى قوله:

فإن الناس فى فقه عيال ∴ على فقه الإمام أبىحنيفة

وتارة يكرر اسمه ثلاث مرات: اثنتان منها باللفظ نفسه (أبوحنيفة) والثالثة بالمرادف (إمام المسلمين) وفى هذا إيماء جلى إلى مدى غزارة علم هذا الإمام من جهة، وعظيم المنزلة التى يتبوؤها فى نفسه من جهة أخرى، ولا غرو! حسبه فى ذلك أنه زينة جميع البلاد ومن عليها كافة.

هكذا يترجم (ابن المبارك) مشاعره الفياضة، ويفصح عن عاطفته الجياشة؛ ثناء وإعجابا بهذا الإمام الذى نال شرف التفقه على يديه فى أحد الأيام.

وإذا كان الأستاذ قد أفاد البشرية كلها بمصنفاته ، فإن التلميذ ــ فيما أعلم من خلال سيرته ــ لم تؤثر عنه أية مصنفات فقهية، على الرغم من "كثرة مصنفاته النافعة فى شتى أبواب العلم"(١) وقد أحصاها البعض فجعلها "عشرين ألفا، أو واحدا وعشرين ألفا"(٢) قد يكون فى هذه الرواية شىء من المبالغة، ولعل الراوى يقصد بذلك عدد الملازم التى تحتوى عليها كل مصنفاته، وأيا كان الأمر، لم يصلنا شىء منها سوى ما تناثر من علمه فى بطون المصادر والمراجع.

---

(١) بتصرف ــ الإمام الربانى: ٢٣، ٦٣، ٩١، شذرات الذهب: ١/٢٩٥ ، ٢٩٦، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، الأعلام: ٤/ ٢٥٦، العبر: ١/ ٢١٧، الفهرست: ٢٨٤، تهذيب الأسماء: ١/ ٢٨٦، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٣٧ .

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٤، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥، عبدالله بن المبارك : ١٩، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٧ .

وحتى يبطل مزاعم المستشرقين الذين أشاعوا عن الزهاد المسلمين "فكرة السلبية بعدم المشاركة فى الواجبات الوطنية، على شاكلة زهد الديانة المسيحية، وما ارتبط بها من رهبانية"(١) ، آثر أن يكون من المجاهدين المخلصين، ومن التجار الصدوقين، وسنعرض لكل منهما بشيء من التفصيل.

أما عن جهاده فقد كان "شجاعا مبارزا صنديدا حتى لقب بفخر المجاهدين"(٢) ، وقيل: إنه "كان يحج سنة ويغزو سنة"(٣)، ها هو ذا يعبر عن مدى عشقه للجهاد، حين يرى أن الحياة الحقيقية، والراحة النفسية فى ثلاث : ملازمة الرمح للجواد، والتهجد فى ليال حالكة السواد، والحراسة؛ تأمينا للثغور والبلاد، وإلا كانت الحياة نكدا لا يطاق، وهما شمل كل الآفاق ــ يقول من بحر الرمل(٤):

كل عيش قد أراه نكدا ∴ غير ركن الرمح فى ظل الفرس
وقيام فى ليال دجن ∴ حارسا للناس فى أقصى الحرس

مما لا ريب فيه أن فى الإيثار لبحر الرمل ــ باعتباره أحد البحور الخفيفة الرقيقة ــ أمرا يتفق مع وضوح الفكرة، وجلاء المعانى، وسهولة الألفاظ والأساليب التى نأى بها عن الضبابية والإبهام، كما نلحظ براعته فى إيثاره القافية (بحرف السين) وإن كان من الأصوات المعروفة برخاوتها وضعفها وهمسها، إلا أنه يتميز بقوة جرسه، وحدة نبرته، وشدة صفيره الذى يتواءم مع نفير

(١) العصر العباسى الأول: ٤٠٣ بتصرف.
(٢) بتصرف ــ التذكرة: ١/ ٢٧٤، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥، الأنساب: ٤/ ٢٥١، عبدالله بن المبارك: ٣١، تاريخ بغداد: ١٠/١٦٧، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٩، ٣٦١ .
(٣) عبدالله بن المبارك: ١٠، مرآة الجنان : ١/ ٣٨١ .
(٤) الموسوعة الشعرية: ١٠، والعيش النكد: المكدر الذى يعيش صاحبه فى عسر وهم، الليالى الدجن: السوداء التى عم ظلامها كل شيء. المعجم الوجيز: ٢٢١، ٦٣٣ .

الجهاد، وهذا ما عناه الشاعر، حتى ينسجم كل ذلك مع جلال الفكرة التى تفصح عن رأيه الصارم، واعتقاده الحاسم فى الاقتناع التام بفكرة الجهاد وسمو منزلته، وليس أدل على ذلك من التقييد للقافية بالسكون؛ تأكيدا وتقريرا لهذا الحسم والحزم.

كما حرص فى ضوء هذا كله على التعبيرات الموحية التى تخدم فكرته، وتزيدها جلاء فى الأذهان، وتقريرا فى النفوس، ففى التعبير بلفظ العموم (كل) إشارة إلى أن الحياة بأسرها، مهما كانت درجة عيشها، نكد وهموم إن خلت من شد الرحال، إلى ساحة الشرف والنضال، وفى هذا إيحاء بمدى بهجته، ونهاية فرحته، إذا خاض معامع القتال، وفى جعله الرمح فى ظل الفرس، إيماء إلى أنه إذا امتطى الجواد، لازمه السلاح مهما شرق أو غرب فى البلاد، وها هو ذا يؤكد تلك الفكرة بالجناس الناقص بين (الفرس، والحرس)؛ ليزيدها تقريرا فى الأذهان، كما أن فى إيثاره الليالى بكونها دجنا، إشارة إلى قيام الليل ساهرا والناس نيام؛ تضرعا ومناجاة للواحد العلام، وفى الجمع بين القيام والفرس، توضيح وتفصيل لبرنامجه اليومى، فهو فى الليل ساهر لمناجاة مولاه، وفى النهار مجاهد فى سبيل الله، ولا غرو! فهو الذى يعد الجهاد من أسمى الفضائل.

ها هو ذا يهدى نصيحته إلى كل عابد يؤثر العزلة والاعتكاف بالمسجد، من خلال هذه الرسالة الشعرية التى وجهها إلى (الفضيل

ابن عياض)[1]، وكان مجاورا بمكة المكرمة ــ يقول له من بحر الكامل[2] :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ∴ لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه ∴ فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ∴ فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ∴ رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ∴ قول صحيح صادق لا يكذب
لا تستوى أغبار خيل الله في ∴ أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ∴ ليس الشهيد بميت لا يكذب

ولله وحده الحمد والمنة، فقد أدت تلك الرسالة الصادقة الغرض المنشود منها، بدليل أن "الفضيل حين تسلمها وقرأها، ذرفت عيناه، ثم قال: صدق أبوعبدالرحمن ونصح"[3].

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى، كنيته أبوعلى، شيخ الحرم المكى، كان من أكابر العباد الصلحاء، وكان ثقة فى الحديث الشريف، وصفه ابن المبارك بقوله : ما بقى على ظهر الأرض أفضل منه. توفى بمكة: ١٨٧هـ ــ بتصرف، الأعلام: ٥/٣٦٠، والعبر: ١/ ٢٣١ .

(٢) الموسوعة الشعرية : ٢، عبدالله بن المبارك: ٤٣، النجوم الزاهرة: ٢/١٠٣، ١٠٤، طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٦، ٢٨٧، العصر العباسى الأول: ٤٠٣، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٤، الرهج (بسكون الهاء) : الغبار، والسنابك: جمع سنبك وهو طرف حافر الخيل ــ المعجم الوجيز: ٢٧٩، ٣٢٣ .

ونلحظ فى البيت الأخير بعض التهاون فى الصياغة التى هى أقرب ما تكون إلى النثرية، ومن ثم نأت بألفاظه عن الروح الشاعرة، وما تحدث فى النفس من هزة الإعجاب، ونشوة التأثر .

(٣) النجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٤، عبدالله بن المبارك: ٤٣ سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٥ .

وبالنظر فيها نلحظ أنه أسند اللعب إلى العبادة، وفى هذا إشارة إلى سمو منزلة الجهاد فوق العبادة بدرجات، حتى إنه يبالغ فى ذلك فيجعلها بالقياس إليه ضربا من اللهو فى الخلوات.

أضف إلى ذلك مدى حرصه على التنوع فى الأساليب؛ رغبة فى الإثارة والتشويق، ولفتا للأذهان، وجذبا للأنظار، فاستطاع بذلك أن يجبر المتلقى على التفاعل معه، فيشاركه أحاسيسه، ويقاسمه مشاعره، وتلك ــ لعمرى ــ براعة فنية تحسب له.

تارة يلجأ إلى أسلوب الالتفات من الخطاب للعابد فى البيت الأول(لو أبصرتنا..)إلى الغائب فى البيت الثانى(من كان يخضب جيده...) ثم ينتقل إلى التكلم فى الشطر الثانى من البيت نفسه (فنحورنا بدمائنا تتخضب)، ثم إلى الغائب فى البيت الثالث (أو كان يتعب خيله..) وهكذا.

وتارة يلجأ إلى أسلوب النداء فى البيت الأول (يا عابد الحرمين) وفى إضافته العبادة إلى الحرمين، إيماء إلى استمرار الملازمة لهما، والاعتكاف فيهما؛ رغبة عن الجهاد فى سبيل الله.

وتارة يلجأ إلى أسلوب الشرط فى البيت الثانى (من كان يخضب جيده..)؛ ليقرر مدى سمو منزلة الجهاد فى سبيل الله على الاعتكاف للعبادة فى بيوت الله.

وتارة يلجأ إلى أسلوب الموازنة فى الأبيات من الثانى إلى الرابع؛ ليؤكد تلك المفارقة بين من يجاهد فى الميدان، ومن يعتكف فى المسجد كل الأزمان.

وتارة يلجأ إلى أسلوب التضمين، وبخاصة فى البيتين الأخيرين: ففى الأول إشارة إلى الحديث الشريف: "لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا"[1]، وفى الثانى إشارة إلى

(١) صحيح الإمام الترمذى: ٩/ ١٩٣ بتصرف .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[1].

وأخيرا يلجأ إلى أسلوب النفى فى البيت قبل الأخير (لا تستوى أغبار خيل الله...)؛ ليقرر مدى استحالة أن يجمع الله فى أنف المجاهد بين غبار المعارك فى الدنيا، ودخان النار فى الآخرة، وفى هذا ما فيه من حسن الظن بالله، ومدى التوقع المبشر بحسن العاقبة التى يمنحها الله للمجاهد، وهى إما النصر وإما الشهادة، وفى كليهما كل الخير والسعادة.

وإذا كانت الفكرة فى هذا المقام، فكرة التفضيل للجهاد على الاعتكاف للعبادة، فهى من أجل الأفكار وأسماها، ومن ثم اشتد حرص الشاعر على المواءمة بين تلك الفكرة والبحر الشعرى، فكان الإيثار لبحر الكامل، بما فيه من امتداد وثقل، وقوة رنين، وشدة جرس، والإيثار أيضا للقافية (بحرف الباء) بما فيه من قوة وشدة وانفجار، حتى حركة القافية، آثر أن تكون (الضمة) بما فيها من الفخامة؛ لينسجم كل ذلك، ويتوافق مع عمق التجربة، وقوة الفكرة، وتوهج العاطفة، وسمو المعانى .

كما نلحظ مدى إبداعه كذلك فى التصوير ، وذلك فى البيتين الثانى والرابع، اللذين شبه فيهما كلا من دموع العباد، ودماء الشهداء بالخضاب، كما شبه رائحة الغبار الذى تثيره السنابك بالعبير الذى يصافح الأنوف، ويداعب الوجوه، ويبدو مدى حرصه على استكمال عناصر الصورة : فاللون نشخصه فى الدموع الشفافة، والدماء القانية، والرائحة نشمها من الخضاب والعبير، والحركة

(١) سورة البقرة: ١٥٤ .

نحسها فى الغبار الذى تتطاير ذراته فى الفضاء، فضلا عن الصوت الصادر ضمنا من صهيل الخيول فى هذه الأثناء.

هذا عن جهاده ومدى تقديره للمجاهدين الذين يجابهون الأهوال، فى ساحة الشرف والنضال، وأما عن تجارته، فكما كان مجاهدا، كان أيضا ممن يؤمنون بضرورة العمل، ففهم الزهد والتصوف على الوجه الصحيح، بما من الله عليه بعقل راجح، وأفق واسع، لم يجعل من الزهد والتصوف رخصة للبطالة والتواكل، ومن أقواله المأثورة فى ذلك: "ليست العبادة عندنا،أن تصف قدميك وغيرك يعولك، إنما العبادة عندنا، أن تبدأ برغيفك أولا، ثم تتعبد"(١) وبالفعل قام بتنفيذ ذلك كله عمليا فى حياته من خلال اشتغاله بالتجارة، فكان كثير الترحال، سواء أكان ذلك طلبا للعلم أم للتجارة، فقد "رحل إلى مصر والشام والبصرة والكوفة وطرسوس"(٢)،وكان "يتاجر فى البز"(٣)، وإذا تساءلنا عن سبب اشتغاله بالتجارة، نجد الجواب فى رده على (الفضيل بن عياض)، حين سأله مرة: "يا بن المبارك، أنت تأمرنا بالزهد وبالتقلل والبلغة،ونراك تأتى بالبضائع من بلاد خراسان إلى البيت الحرام، وكيف ذاك؟ فقال: إنما أفعل ذلك؛ لأصون ماء وجهى، وأكرم به عرضى، وأستعين به على طاعة ربى"(٤)؛ كى لا يكون هدفا للشامتين والحاقدين ــ يقول من بحر البسيط(٥):

---

(١) عبدالله بن المبارك ــ المقدمة : ٥ بقلم د/ محمد عبدالله السمان.
(٢) النجوم الزاهرة: ٢/ ١١٢، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٣٨ .
(٣) تاريخ بغداد: ٦/ ٣٥ ــ البز: الثياب بعامة، أو ضرب منها . المعجم الوجيز: ١٩٤، لسان العرب: ١/ ٢٧٤ .
(٤) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٩، ١٦٠، الإمام الربانى: ٣٨، ٣٩، عبدالله ابن المبارك: ٢١، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٣ .
(٥) الموسوعة الشعرية: ٢٥ . من الملاحظ تورطه فى (البتر) حين فصل بين (لولا) الشرطية فى البيت الأول وبين جوابها فى البيت=

لـولا شماتـة أعـداء ذوى حسـد ∴ أو اغتمـام صـديق كـان يرجـونى
لما طلبـت مـن الـدنيا مراتبهـا ∴ ولا بـذلت لهـا عرضـى ولا دينـى

بالنظر فى البيتين نلحظ إيحاءهما بمدى رغبته الجامحة فى مزاولة هذه المهنة؛ حفظا لماء وجهه، كما صرح بذلك آنفا، وإلا تناوشه الحساد إن لم يسع؛ طلبا للرزق الحلال، وألم الهم بالأخلاء إذا قصدوه للنوال، ولا غرو! فقد كان قدوته فى ذلك أستاذه (أباحنيفة) الذى اشتهر "بعفة النفس، والكسب الحلال، فكان خزازا، يملك دارا كبيرة، وعنده صناع وأجراء لعمل الخز"(١).

وإذا كان الشاعر قد زاول مهنة التجارة كما أخبرنا عن نفسه؛ حفظا لماء الوجه من جهة، ومجابهة للحساد والشامتين من جهة أخرى ، مقدما بذلك أروع النماذج فى التقديس للعمل فهو من سويداء لبه، يعيش تجربة قاسية، تتمثل فى الحزن الشديد على هؤلاء الشامتين والحساد اللذين يركنون إلى الدعة والخمول، متناسين منهج الإسلام فى ذلك، كان الأولى بهم أن يكدوا فى هذه الحياة؛ طلبا للرزق الحلال، وإلا استحقت حالهم كل الأسى والأسف، ونتيجة لهذه النفسية الحزينة، آثر الشاعر بحر البسيط، بما فيه من تتابع لإيقاعاته السريعة التى تتواءم مع تلك الزفرات المتلاحقة؛ أسفا على هؤلاء، كما تبدو براعته الفنية فى الإيثار (لحرف النون) قافية له، بما فيه من جهر وشدة يتوافقان مع قوة التجربة، وعمق الفكرة التى هو بصددها، حتى حركة القافية آثر أن تكون (الكسرة)؛ ليتحقق الانسجام التام مع نفسيته المكتئبة من أجل هؤلاء، كيف لا!وهو

=الثانى، فضلا عن (سناد الحذو) فى البيتين بين كلمتى الروى: (يرجونى ــ دينى)٠

(١) بتصرف ــ البداية والنهاية: ١٠/ ١٠٧، العبر: ١/ ١٦٤، الأعلام: ٩/ ٤، شذرات الذهب: ١/ ٢٩٧، عبدالله بن المبارك: ١٠، والخز : نوع من الثياب ينسج من الصوف أو من الحرير الخالص ــ المعجم الوجيز: ١٩٤ ٠

مكسور نفسيا، مقهور معنويا،ونظرا لهذه الشحنة الهائلة من الغضب الذى أترعت به جوانحه،آثر سبق القافية بحرف المد؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة، فى النهاية لم يكتف بهذا كله، وكأنه استشعر أنه غير كاف فى الإفصاح عن مدى غضبه، فأتبع القافية بحرف المد (الياء) ؛ كى يظل دوى زفراته المتلاحقة موصولا حتى يطرق الأسماع فى كل الأصقاع ، ويقاسمه كل من يسمع أحاسيسه ومشاعره، فى الذم والاستهجان للبطالة والكسل، والإشادة الدائمة للكرامة والعمل، ولاسيما إذا كان هذا العمل مجاله التجارة ٠

وإذا كان الرسول(ﷺ)قد حثنا على التجارة بقوله:"عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق"(١)، فقد كان رأس مال(ابن المبارك) نحو "أربعمائة ألف درهم،وكان كسبه يربو فى كل سنة على مائة ألف درهم، ينفقها كلها- وربما أخذ من رأس المال - على العباد والزهاد والعلماء والحجاج والفقراء والإخوان والأخلاء"(٢)، هذا إن دل فإنما يدل على مدى زهده المطلق فى كل شىء بلا استثناء، وبخاصة فى هذه الأمور الثلاثة التى نستعرضها بشىء من التفصيل كما يلى٠

أولا ـ الزهد فى الدنيا:

كان (ﷺ) شديد الزهد فى الدنيا "كثير التنفير منها"(٣)، وقد تمثل ذلك فى مظاهر عدة: تارة ينظر إليها بمدى الاحتقار، يقول من بحر الطويل(٤):

نظرت إليها نظرة لو كسوتها ∴ سرابيل أبدان الحديد المسرد

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢/ ٦٢ ٠

(٢) بتصرف ــ البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٧، الإمام الربانى: ٣٣، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٦١ ٠

(٣) فى الأدب الإسلامى: ١٦٩ ٠

(٤) الموسوعة الشعرية: ٤ ــ السرابيل: جمع سربال ، وهو الدرع أو القميص أو كل ما يلبس، والحديد المسرد: الذى أحكم نسج حلقاته= =المعجم الوجيز:٣٠٧، ٣٠٨ يلاحظ تورطه فى(البتر)،حين فصل بين(لو)الشرطية فى البيت الأول وبين جوابها فى البيت الثانى٠

لرقت حواشيها وفض حديدها ∴ ولانت كما لانت لداود فى اليد

الشاعر يعيش تجربة عميقة، وفكرة جليلة، تتمثل فى مدى قوة إرادته، وصلابة عزيمته من جهة، وهوان الدنيا أمام هذه القوة وتلك الصلابة من جهة أخرى، ومن ثم كان الإيثار لبحر الطويل، بامتداده وثقله، وقوة جرسه، وشدة رنينه، كما آثر كون القافية (حرف الدال) باعتباره أحد الأصوات المجهورة الشديدة الانفجارية؛ ليتواءم كل ذلك مع عمق التجربة، وجلال الفكرة، وتوهج العاطفة، بيد أننا نلحظ أنه رغم هذه القوة المتجانسة، يعمد إلى استغلال عبقريته الشعرية، حين يلجأ إلى كسر القافية، رمزا إلى الضعف، حتى يتواءم ذلك مع هوان الدنيا وانكسارها أمام قوة إرادته، وصلابة عزيمته.

ولكى يزيد من فكرته جلاء فى الأذهان، وتقريرا فى النفوس، نلحظه يعمد إلى تنويع الأداء الأسلوبى:مرة يلجأ إلى التنكير للنظرة؛ إيماء منه إلى غاية الاحتقار، ونهاية الازدراء لهذه الدنيا، ومرة ثانية يلجأ إلى التشبيه؛ لبيان أثر تلك النظرة القاسية التى لو صوبت نحو الحديد المعروف بصلابته، لصار لينا كما لان فى أيدى (داود) الماهر فى صنعته.

ومرة ثالثة يلجأ إلى التضمين، فالتصريح فى هذا المقام باسم نبى الله داود (عليه السلام) وذكر الحديد المسرد ، فيه إشارة إلى قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

(١) سورة سبأ ــ من الآيتين : ١٠، ١١ .

إثر هذا العرض يتقرر لدينا مدى احتقاره للدنيا، ونهاية قسوة نظرته إليها، وما ترتب على تلك النظرة من آثار قد بيناها على النحو الذى سبق ذكره آنفا .

وتارة يشبهها بالسجن الذى يعيش فيه المرء حبيسا ذليلا مهانا، إن سيطرت على لبه، وملأت شغاف قلبه ، ويستدل على ذلك بما يرويه عن النبى (ﷺ) : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فإذا فارق المؤمن الدنيا فارق السجن"(١).

وتارة ثالثة يصفها بالغرور الخداعة، فيقول من بحر الكامل(٢):

دنيا تداولها العباد ذميمة ∴ شيبت بأكره من نقيع الحنظل
وبنات دهر لا تزال ملمة ∴ فيها فجائع مثل وقع الجندل

بما أن الشاعر من الزهاد العباد، فما أهون الدنيا فى ناظريه، وما أقواه إيمانا وانتصارا عليها، وما أشده بغضا وذما لأحوالها، من هذا المنطلق كان موفقا حين آثر بحر الكامل بثقله، وقوة جرسه، وشدة رنينه، وكذلك إيثاره القافية (بحرف اللام) باعتباره أحد الأصوات القوية الشديدة؛ لينسجم كل ذلك مع قوة إيمانه بربه، وشدة بغضه لهذه الدنيا، كما تتجلى براعته ــ فى الوقت نفسه ــ فى تحريك القافية بالكسر؛ إيماء إلى الضعف الذى يتفق مع ضعف الدنيا

(١) بتصرف ــ صحيح الإمام الترمذى: ٩/ ١٩٨، حلية الأولياء: ١٨٥/٨ .

(٢) الموسوعة الشعرية: ١٥، الورقة: ١٧، العصر العباسى الأول: ٤٠٥، والحنظل: نبت مفترش ، ثمرته فى حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة، وبنات الدهر: نوائبه وأحداثه، وبنات الصدر: الهموم، والفجائع: جمع فجيعة وهى المصيبة المؤلمة توجع الإنسان بفقد ما يعز عليه من مال أو حميم، والجندل: مكان فى مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان الماء. المعجم الوجيز: ٦٤، ١٢٠، ١٢١، ١٧٥، ٤٦٣ .

وانكسارها ومدى هوانها أمام هذه القوة الإيمانية من جهة، وتلك الدرجة الشديدة من البغض من جهة أخرى .

ولكى يبرز مدى الأثر الذى تتركه فجائعها فى النفوس ، نجده يلجأ إلى تشبيهها تارة بالحنظل فى المرارة، وتارة بالجندل فى القسوة،ومن خلال هذا التخيل يحرص على استكمال العناصر الجزئية للصورة: فالطعم نلحظه فى الحنظل، والصوت والحركة نلحظهما معا فى وقع الجندل، وفى هذا كله إيحاء بمدى خداعها وتلونها.

ولكى يزيد الفكر جلاء وتوكيدا فى الأذهان من ناحية، وتحريكا للعقول ، وجذبا للمشاعر من ناحية ثانية، نلحظه يلجأ إلى التنويع فى الاسلوب: تارة يلجأ إلى أسلوب التشخيص فى قوله: (وبنات الدهر) حيث تخيل الدهر أبا، والفجائع بناته، ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من كناية عن موصوف وهو الأحداث والنوائب،وتارة يلجأ إلى التعبيرات الشفافة. ففى قوله: (تداولها) إيحاء بأن ديدنها هو التغير السريع، والتحول المفاجئ من شخص إلى آخر، فما أن ينعم يوما بحلاوتها، إلا وجرعته أياما بمرارتها، وفى قوله: (ذميمة) إيماء إلى المبالغة فى درجة البغض لها بسبب خداعها، وكثرة فجائعها التى لا تفارقها،ومما يعضد هذا التلازم،قوله:(لا تزال ملمة) للإيحاء بدوامها واستمرارها،وفى استخدامه أفعل التفضيل بهذه المادة(بأكره) مبالغة فى البغض لفجائعها التى تفوق درجة مرارتها نقيع الحنظل وخلاصته.

وأخيرا يؤكد مدى التنفير منها، ويذم الإقبال عليها، حين شبهها ــ والحال هذه ــ بالحية الناعمة فى ملمسها، لكنها مهلكة قاتلة بسمها، ها هو ذا يستغل براعته فيلخص ذلك كله فى هذا البيت قائلا من بحر المتقارب[1] :

حلاوة دنياك مسمومة ∴ فما تأكل الشهد إلا بسم

(١) الموسوعة الشعرية:١٦،الورقة:١٧،العصر العباسى الأول:٤٠٥

نحن إذن أمام فكرة جلية ومعان واضحة، تفصح عن مدى نفوره من هذه الدنيا، ومن ثم كان الإيثار لبحر المتقارب، باعتباره أحد البحور الرقيقة الخفيفة، فضلا عن سهولة ألفاظ البيت بدرجة تكاد تقترب من النثرية؛ ليتواءم كل ذلك مع جلاء الفكرة، ووضوح المعانى، ولكى يزيدهما جلاء وتقريرا فى الأذهان، عمد إلى الطباق بين (الحلاوة والسم) وكذلك بين (الشهد والسم)، وفى التكرار للسم إيحاء بشدة البغض ومدى النفور منها، وأخيرا يعمد إلى أسلوب القصر بالنفى والاستثناء؛ ليؤكد بهذا كله أن متاعها الفانى ، وأمانيها الكاذبة، كل هذا ما هو إلا سموم مهلكة.

كانت النتيجة الطبيعية لكل هذا الذم والبغض والتنفير من هذه الدنيا، الإقبال على العلم؛ للزهد المطلق فيها، ومما أثر عنه فى ذلك: "تعلمنا العلم للدنيا، فدلنا على ترك الدنيا"(١) ، وكيف لا يزهد فيها، والزهد يعد من أجل النعم، وأفضل المنن التى زين الله بها العقلاء من عباده، هكذا يقرر فيما يرويه عن الرسول الكريم (ﷺ) : "ما زان الله العباد بزينة أفضل من زهادة فى الدنيا، وعفاف فى بطنه وفرجه"(٢) ، ولم يكتف بذلك، بل يتخذ ــ لتحقيق هذا الزهد ــ وسيلتين: الأولى ــ وتتمثل فى االبيع لنفسه؛ فداء للواجب ، ورغبة فى الاستشهاد؛ فرارا من هذه الدنيا التى لا ثمن لها عنده، ولا وزن لها فى حسابه ــ يقول من بحر البسيط(٣):

بغض الحياة وخوف الله أخرجنى ∴ وبيع نفسى بما ليست له ثمنا
إنى وزنت الذى يبقى ليعد له ∴ ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا

(١) وفيات الأعيان: ٣/ ٣٤ .
(٢) حلية الأولياء: ٨/ ١٧٧ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ٢٠، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٦، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣، ٣٤، عبدالله بن المبارك: ٤٢، الإمام الربانى: ٢١، ٢٢، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٩ .

يؤكد الشاعر ــ فى هذين البيتين ــ مدى زهده فى الدنيا عمليا، حين ضحى بنفسه؛ أملا فى الشهادة، بعد أن تحقق البغض للحياة، والخوف من الله، بغض وخوف وتضحية، كلها أمور متلاحقة متتابعة فى حياة الشاعر، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط بإيقاعاته السريعة التى تنسجم مع هذا التلاحق والتتابع، فضلا عن كون القافية (حرف النون) بما فيه من صفات الجهر والشدة، ثم التحريك له بالفتح، بما فيه من استعلاء؛ ليتفق كل ذلك مع قوة العاطفة، وعمق التجربة، وجلال الفكرة، لم يقف الأمر عند هذا الحد، وكأنه استشعر أن كل ذلك لم يف بالغرض فى الإفصاح عما يبغى، فأتبع القافية بألف الإطلاق كى يظل دوى صوته مستمرا حتى يبلغ الأجيال فى كل مكان ٠

هذا عن الوسيلة الأولى، وأما عن الثانية فهى تتمثل فى جعله هذه الدنيا مزرعة للآخرة، حيث يقول من بحر المنسرح[١] :

يا أيها الناس أنتم عشب ∴ يحصده الموت كلما طلعا
لا يحصد المرء عند فاقته ∴ إلا الذى فى حياته زرعا

لقد آثر الشاعر بحر المنسرح بخفته ورقته؛ ليتناسب مع وضوح فكرته، وسلاسة أسلوبه، وجلاء معانيه، ولكى يزيد الفكرة وضوحا وتقريرا ، لجأ إلى التخيل من خلال هذا التشبيه البليغ للناس بالعشب الذى يحصده المنجل كلما نبت، ولا يخفى مدى حرصه على استكمال عناصر تلك الصورة المتمثلة فى اللون الذى نلحظه فى العشب، والصوت والحركة الملحوظين فى المنجل، أضف إلى ذلك مدى دقته فى التعبيرات الموحية : ففى الإيثار للعشب دون سواه، إيحاء بكثرة انتشاره، وسرعة زواله، فمن طبيعته أنه "كلأ رطب يهيج ولا يبقى"[٢]، وهكذا الشأن فى بنى البشر، يتكاثرون رغم حصاد

(١) الموسوعة الشعرية : ١١ ٠
(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٩٥٠ ٠

الموت لهم ، أما فى اللجوء إلى أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء فى البيت الثانى، ففيه إيحاء يحمل معنى النصح والإرشاد بأن الخير كله يتمثل فى شغل هذه الدنيا بصالح الأعمال، وبالطبع لن يتحقق هذا الخير إلا إذا اشتغل القلب بالصالحات، وتجرد من حب الدنيا والشهوات، على حد قوله: "إذا أحب القلب الدنيا، واحتوشته الذنوب، فمتى يصل الخير إليه"(١).

فى النهاية، يتحفنا بثمرة هذا الزهد، فيقول من بحر الطويل(٢):

تنعم قوم بالعبادة والتقى ∴ ألذ النعيم لا اللذاذة بالخمر
فقرت به طول الحياة عيونهم ∴ وكانت لهم والله زادا إلى القبر
على برهة نالوا بها العز والتقى ∴ ألا ولذيذ العيش بالبر والصبر

الشاعر يعيش تجربة عميقة، تولدت عن فكرة قوية جليلة، إذ إنه ليس أسمى ولا أجل من الإشادة بثمرة الزهد المتمثلة فى الانشغال بالطاعة فى الدنيا؛ للفوز بالنعيم فى الآخرة، من ثم كان الإيثار لبحر الطويل، بما فيه من امتداد وثقل وقوة جرس، وكذلك اختصاص القافية (بحرف الراء) باعتباره أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ ليتفق كل ذلك مع عمق التجربة، وقوة الفكرة، وسمو المعانى، بيد أنه آثر ــ رغم ذلك ــ الكسر للقافية؛ إيماء إلى الضعف الذى ينسجم بدوره مع هدوء النبرة فى هذا المقام، مقام النصح والإرشاد، وها هو ذا يعضد ذلك بالإكثار من حروف المد فى هذه الكلمات (العبادة، النعيم، اللذاذة، طول، الحياة، عيون، زاد، نالوا)؛ كى يزيد الإيقاع بطئا وهدوءا يمكنه من الإفصاح عن مشاعره،

---

(١) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٧، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥٣ ــ احتوشته: أى تجمعت عليه وأحاطت به، تقول العرب: احتوش القوم فلانا ، إذا جعلوه وسطهم وتجمعوا حوله ــ لسان العرب: ١٠٤٩/٢ .

(٢) الموسوعة الشعرية: ٨، البرهة: المدة من الزمان، أو الزمان الطويل ــ المعجم الوجيز: ٤٨، القاموس المحيط: ٤/ ٤٠٠ .

والترجمه لأحاسيسه التى تؤكد العزة والسيادة، لمن استغل حياته بالطاعة والعبادة ٠

ولكى يزيد التجربة جلاء، والفكرة وضوحا وترسيخا فى الأذهان، ويوائم ــ فى الوقت نفسه ــ بين الموسيقى الظاهرة والخفية، عمد إلى الطباق بين (التقى والخمر)، وكذلك بين (الحياة والقبر)، والجناس الناقص بين (القبر والصبر)٠

ولشدة حرصه على جذب الأذهان، واستقطاب المشاعر، وتحريك العقول والأفكار، لجأ إلى هذا التنويع فى الأداء الأسلوبى : تارة إلى التنكير (للقوم) ؛ تعظيما لشأنهم، وسموا لمكانتهم، بسبب زهدهم الذى عزفوا فيه عن الشهوات، واشتغلوا بالصالحات ٠

وكذلك التنكير (للبرهة) إيحاء بالتعظيم لشأن الوقت فى حياة المؤمن؛ بدليل تحسر المقصر يوم الحساب على مرور برهة عليه فى الدنيا ألهته عن ذكر الله، وتارة يلجأ إلى أسلوب الموازنة بين لذة الطاعة ولذة الخمر، وفى هذا تصريح جلى يؤكد مدى المفارقة بين الأمرين، فالطاعة ثمرتها النعيم المقيم، بينما الخمر نهايتها عذاب الجحيم، وتارة يلجأ إلى الجمع بين (النعيم والعز والتقى والبر والصبر وقرة العيون) إيماء بذلك إلى ثمرة الزهد فى الدنيا ومتاعها، والإقبال على الآخرة ونعيمها٠

وتارة يلجأ إلى التعبير باسم التفضيل (ألذ) إيماء إلى أن متعة التقوى وحلاوة العبادة، لا تفضلها متعة، فهى وحدها التى تحوز قصب السبق، وكل ما عداها لا يمثل شيئا مذكورا ٠

وأخيرا يلجأ إلى التفصيل بعد الإجمال، فبعد أن صرح فى البيت الأول بمدى سمو متعة التقوى والعبادة على ما سواها، أخذ يفصل فى البيتين التاليين نوعية هذه المتعة بأنها ليست مادية، سرعان ما تزول ويزول معها أثرها، وإنما هى متعة معنوية روحية تلازم

صاحبها مدى الحياة، وتكون له زادا فى أخراه، وها هو ذا يؤكد ذلك بهذا القسم (والله)؛ كى ينفى أية شبهة عما قرره من جهة، ويؤكد ضرورة اليقين بحسن الخاتمة لمن شغل حياته بالطاعة لله رب العالمين.

إثر هذا كله، لا نملك سوى أن نقول: صدق ابن المبارك فيما قرر ونصح؛ ليخلص بذلك إلى الاطمئنان النفسى، والارتياح القلبى، والفوز بالقبول لدى الناس فى الأرض بعد حب الله فى السماء، يقول (ﷺ) : "الزهد فى الدنيا يريح القلب والجسد"(١) وأتاه يوما رجل "فقال: يا رسول الله، دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس، فقال: ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس"(٢).

ثانيا ـ الزهد فى المال:

بالنظر فى شعره، لم أعثر على أى نماذج فى هذا المجال، سوى هذه المعلومات التى أشارت إليها المصادر فى معرض الحديث عن سيرته، ومدى زهده فى المال الذى ليس له وزن عنده ولا حساب، سوى استغلاله فى أوجه الخير؛ رغبة فى الثواب.

علمنا مما سبق أن (ابن المبارك) كان من الأثرياء بسبب الصدق والأمانة فى تجارته الواسعة التى درت عليه مالا وفيرا، إذ كان "رأس ماله نحو أربعمائة ألف درهم، وكان كسبه فى كل عام يربو على مائة ألف درهم"(٣)، وإذا كان بعض التجار يكنز المال؛ ضنا على الفقراء والمحتاجين، فقد كان (ﷺ) زاهدا كل الزهد فى هذا المال الكثير، كان "سخيا بما ملك من الدنيا، حتى بلغ من العطاء

(١) الترغيب والترهيب: ٤/ ١٥٧ .
(٢) المصدر نفسه : ٤/ ١٥٦، ١٥٧ .
(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٧، الإمام الربانى: ٣٣، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٢، ٣٦١ .

درجة أشبه ما تكون بالأساطير التاريخية، والخيالات الروائية"[١] حسبه فى ذلك أن "سفرته كانت تحمل على بعير وحدها، وفيها ما فيها من أنواع المأكول من اللحوم والدجاج والحلوى وغيرها"[٢] ، وكان يجود بماله على إخوانه الحجاج المرافقين له من بلدته (مرو)، ومما يؤثر عنه فى ذلك "أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم فى الحر الشديد"[٣] ، وفى آخر سفرة له صنع لهم وليمة "قدم فيها خمسة وعشرين خواناً من الفالوذج"[٤] .

وإذا كان الرسول (ﷺ) قد قرر: "أن النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله، الدرهم بسبعمائة، وفى رواية بألف ألف"[٥] ، فقد كان (ﷺ) يطبق ذلك عمليا "إذ كان ينفق عليهم طوال الرحلة ذهابا وإيابا،

---

(١) بتصرف ــ الأنساب: ٤/ ٢٥١، الإمام الربانى: ٣٩ .

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٨سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٢ .

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٨، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٧، الإمام الربانى: ٣٩، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤١ ــ الخبيص: الحلواء المخبوصة أى المخلوطة من التمر والسمن ــ المعجم الوجيز: ١٨٤ ، وفى العبارة تقديم وتأخير أحدث نوعا من الركاكة ، والصواب: كان يطعمهم الخبيص الدهر وهو صائم فى الحر الشديد.

(٤) بتصرف ــ تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٨، سير أعلام النبلاء: ٨/٣٤٢ ــ الخوان (بكسر وضم الخاء) : ما يؤكل عليه كالمنضدة ونحوها، والفالوذج: نوع من الحلواء يستعمل من لب الحنطة ثم يسوى ويؤكل ، واللفظ خطأ، والصواب: الفالوذ، أو الفالوذق، وكل من اللفظين: الخوان والفالوذج فارسى معرب ــ لسان العرب: ٢/١٢٩٥، ٥/٣٤٦٠ .

(٥) الترغيب والترهيب: ٢/ ١٨٠ .

ويشترى لهم كل شىء حتى الهدايا، فإذا ما وصلوا إلى ديارهم سالمين، أمر بتجصيص أبوابهم ودورهم"(١).

فى خضم هذا العطاء الغزير، لم ينس الفقراء الذين بلغ إنفاقه عليهم "فى السنة الواحدة مائة ألف درهم، بل ربما امتدت يده إلى رأس المال زيادة على ذلك"(٢)، ليس هذا فحسب، بل كان لا يرد سائلا منهم حتى لو كان مدعيا الفقر والحاجة، فقد "أتاه سائل يوما، فأعطاه درهما، فقيل له: إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج وكان يكفيه قطعة، فقال: إن كان كذلك فإنه لا يكفيه درهم، وأمر بإعطائه عشرة دراهم"(٣)، كما كان ينفق على أهل الزهد والتصوف، وفى الوقت نفسه يحثهم على ضرورة العمل، والتحلى بالعزة وعفة النفس، ويشجعهم على ذلك بقوله: "أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم، ولا يزال ينفق عليهم بسخاء حتى سئل عن ذلك فأجاب: وما تنكر أن يبارك الله للغازى فى نفقته"(٤).

بيد أن هذه الثروة الواسعة قد تضاءلت فى آخر حياته وكادت تنضب، ورغم ذلك لم ينضب معين السخاء من نفسه، وبخاصة على الغارمين الذين لزمتهم الهموم بسبب كثرة الديون، ها هو ذا "يأتيه رجل

---

(١) بتصرف ــ شذرات الذهب: ١/ ٢٩٦، عبدالله بن المبارك: ٢٣، البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٨، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٨، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤١، ٣٤٢ ــ والتجصيص يعنى: الطلاء بالجص وهو الجير، والمراد الزخرفة بالنقوش كما تزخرف الأبواب والحوائط الآن للحجاج فى معظم البلدان؛ ابتهاجا بقدومهم ــ المعجم الوجيز: ١٠٧ بتصرف .

(٢) شذرات الذهب: ١/ ٢٩٥، العبر: ١/ ٢١٧، أدب الزهد: ٤٢، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٨، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٢ .

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٨ بتصرف.

(٤) تاريخ بغداد١٠/١٥٧، ١٥٨بتصرف،سير أعلام النبلاء٨/٣٤١ .

يسأله قضاء دينه الذى بلغ سبعمائة درهم، فكتب لوكيله أن اعطه سبعة آلاف درهم، فتعجب الوكيل من أمره وبادره بالسؤال عن هذه الزيادة، وقد تضاءلت الثروات، وفنيت الغلات، فأجابه: إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضا قد فنى، فأجز له ما سبق به قلمى"[١] ، وفى موقف آخر يحرص على إنكار الذات ؛ حسبة لله وحده، "حيث وكل من أدى عشرة آلاف درهم عن شاب مدين كان يتردد عليه، وقد حكم عليه بالحبس بسبب العجز عن السداد، واستحلف الوكيل ألا يخبر أحدا بذلك ما زال عبدالله حيا، وتم الإفراج عن الشاب، والتزم الوكيل بالوعد، ولم يعرف الشاب ولا غيره بذلك إلا بعد موت ابن المبارك"[٢] ، ويزداد هذا السخاء أكثر من كل ما سبق على أهل العلم بعامة، وطلاب الحديث الشريف بخاصة، ولما سئل عن ذلك أجاب: "إنى أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب، بحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع عليهم، وإن أعناهم نشروا العلم لأمة محمد (ﷺ) ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم ونشره"[٣].

ثالثا ـ الزهد فى السلطة:

ما أشد وما أضر خطر المنصب على من سأله أو حرص عليه، هذا ما يؤكده رسول الله (ﷺ) : "لرجلين دخلا عليه، فقال أحدهما: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك الله (عزوجل) ، وقال الآخر: مثل ذلك، فقال (ﷺ) : إنا لا نولى هذا العمل أحدا سأله، أو أحدا حرص عليه"[٤] ذلك أن كليهما ــ بهذا الحرص ــ يبتغى الشهرة

(١) بتصرف ــ تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٨، ١٥٩، عبدالله بن المبارك:٣٠ ، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٤٢ .
(٢) بتصرف ــ تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٩، عبدالله بن المبارك: ٢٢، ٢٣، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٤٢، ٣٤٣ .
(٣) بتصرف ــ تاريخ بغداد : ١٠/ ١٦٠، أدب الزهد: ٤٢ ، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٣ .
(٤) رياض الصالحين: ٢٢٦ .

ورضا الناس على حساب الدين دون العكس، وقد وضح (ﷺ) كبد هذه الحقيقة بقوله: "من التمس رضا الله بسخط الناس، رضى الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس"(١) هذا يعنى أن الذى يستغل المنصب فى رضا الله أولا، ويفضل الدين على الدنيا قبل وبعد كل شىء، قلة من البشر، أما الجل فهم الذين يكونون بخلاف ذلك ، وهؤلاء ــ عافانا الله ــ قد ابتلاهم الله بداء العشق للمنصب، وهو داء لا دواء له، كدليل دامغ على سخط الله عليهم، ذلك ما يؤكده (ابن المبارك) فى قوله من بحر البسيط(٢):

حب الرياسة داء لا دواء له ∴ وقلما تجد الراضين بالقسم

الشاعر يضيق ذرعا،وزفرات أنفاسه مضطرمة،والغضب العارم يملأ جوانحه؛ سخطا وغضبا على هذه النوعية من البشر،عاشقى المناصب على حساب الدين،ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط،بإيقاعاته السريعة التى تتفق مع تلك الزفرات المتلاحقة، والإيثار للقافية (بحرف الميم)باعتباره أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ لينسجم ذلك مع هذه الشحنة الهائلة من الغضب القوى الذى يمور فى صدره، بيد أنه آثر رغم ذلك تحريك القافية بالكسر، بما فيه من ضعف؛ ليتواءم ذلك مع الضعف النفسى لهؤلاء العشاق من جهة، أمام بريق المناصب التى سرعان ما تزول، ويزول معها أصحابها، والضعف المعنوى له من جهة أخرى؛ أسى وأسفا على هؤلاء.

ولكى يزيد من جلاء الفكرة، وتعميقها فى الأذهان، عمد إلى هذا النوع من التعبيرات الشفافة: ففى إضافة الحب إلى الرئاسة، إيحاء

---

(١) الترغيب والترهيب: ٣/ ٢٠٠ .

(٢) الموسوعة الشعرية: ١٧ ــ والقسم (بفتح القاف وسكون السين) : الحظ والنصيب، بيد أنه حرك بالفتح لاستقامة الوزن ــ المعجم الوجيز: ٥٠١ .

بمدى غرام هذه النوعية بالمناصب لغرض دنيوى،وكأن الحب فى قاموس حياتهم لا مجال له سوى هذا النوع من الرئاسة؛لتحقيق أغراضهم الدنيئة، ومآربهم الخبيثة، وفى التنكير للداء، إيماء إلى التهويل والتفخيم من شأن هذا المرض العضال، وحسبه توكيد ذلك بقوله: (لا دواء له) هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فيه دلالة على مدى بغضه، وشدة نفوره من هذا الأمر الذى لم يجد أى تعبير يناسبه سوى الوصف له بالداء، وفى التعبير بقوله : (قلما) تصريح جلى بأن الصالحين الراضين بما قسم الله قلة، أما السواد الأعظم فيمثله تلك الفئة عشاق السلطة بغرض البيع للدين بالدنيا ، وهذا من الخطورة بمكان٠

ونظرا لهذه الخطورة، كان (ﷺ) يضيق بحياة اثنين لا ثالث لهما: الملوك الذين استغنوا بالدنيا عن الدين، وعلماء السلطة الذين يرضون السلطان على حساب الدين، حسب كل منهما أن يرتع فى جيفة، تنفر منها القلوب السليمة، وتشمئز منها النفوس القويمة ــ يقول من بحر المتقارب[1]:

وهل بدل الدين إلا الملوك ∴ وأحبار سوء ورهبانها
لقد رتع القوم فى جيفة ∴ يبين لذى العقل أنتانها

ما زال الشاعر متوترا، وما زال بركان الغضب يفور فى أعماقه؛ حزنا على هذين النوعين، بيد أنه آثر ــ رغم ذلك ــ العرض لتجربته العميقة بأسلوب سهل، ومعان واضحة، وأفكار جلية، كى تقع من القلوب موقع الغيث من الأرض المجدبة، ومن ثم كان الإيثار لبحر المتقارب، بما فيه من رقة وخفة تتناسب مع تلك السهولة، ثم تتجلى براعته فى الإيثار للقافية (بحرف الهاء) باعتباره أحد الأصوات المعروفة بالهمس والرخاوة؛ ليتناسب ذلك مع ضعفه المعنوى؛ تأثرا بسلوك هؤلاء التعساء، لكنه ــ فى الوقت نفسه ــ

(١) الموسوعة الشعرية: ١٨، عبدالله بن المبارك: ٤١، الإمام الربانى: ١٧٤ ٠

راعى شدة توتره، وقوة غضبه، فآثر التحريك للقافية بالفتح بما فيه من استعلاء؛ ليتناسب مع تلك القوة الغضبية، كما حرص أيضا على الإتيان بهذين الألفين: الأولى ألف التأسيس التى سبقت الدخيل؛ كى تمنحه فسحة من الوقت لتفريغ تلك الشحنة من بركان غضبه، والثانية للإطلاق، وكأنه استشعر أن كل ما سبق عرضه غير كاف فى النقل لمشاعره، فأتى بهذه الألف التى تمثل صرخة احتجاج على هذا المنكر، حتى يظل دوى صوته الغاضب، وحرارة زفراته المضطرمة موصولة إلى أن تبلغ مسامع الأجيال فى كل مكان، ولا يخفى ما فى التعبير بالجيفة والأنتان من الإيماء إلى مدى نفوره واشمئزازه النفسى من هؤلاء الأشقياء اللذين آثروا عرض الدنيا على شرف الدين، فاستحقوا السخط من رب العالمين ٠

ولكى يزيد من تلك التجربة العميقة القوية جلاء وتقريرا فى الأذهان، آثر الدقة فى اصطفاء التعبيرات الموحية التى تشع بظلالها فى كل الاتجاهات ٠

ففى إيثاره التعبير بكلمة (سوء) يبدو مدى براعته فى دقة انتقاء اللفظ المناسب؛ كى لا ينسحب الحكم على جميع الملوك والعلماء، فمنهم من يوفقه الله للإخلاص ومراقبة ربه فى السر وفى العلن، ومنهم من يكون بخلاف ذلك، وهو المراد فى هذا المقام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان بمكنته فى البيت الثانى أن يعبر عن الرتع بالمكث، مع استقامة الوزن، بيد أنه آثر الدقة فعبر بالرتع الذى من معانيه "الأكل بشره"[1]؛ ليومىء بذلك إلى مدى تشبث كلا النوعين بالمنصب، وغاية شراهتهما بالدنيا، وإن شئت فقل: الجيفة المنتنة التى آثراها على الدين ٠

من هذا المنطلق لم يضن بإهداء النصح إلى الأمة جمعاء، تجاه كلا النوعين على السواء، أما بخصوص الملوك فإنه يقرر أن السعادة الحقيقية ــ فى هذه الحال ــ أن نترك لهم الدنيا، ونستغنى عنها بالدين، ففى ذلك

(١) لسان العرب: ٣/ ١٥٧٧ ٠

الرضا لله رب العالمين ــ يقول مستشهدا بقول المسيح (عليه السلام) : "كما ترك الملوك لكم الحكمة، فاتركوا لهم الدنيا"[1]، ويسجل ذلك شعرا بقوله من بحر البسيط[2]:

أرى أناسا بأدنى الدين قد قنعوا ∴ ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما اسـ ∴ تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

رغم أن المقام مقام النصح والإرشاد، وهذا يستدعى الوداعة والهدوء، إلا أن عاطفة الشاعر تتأجج غضبا ونفورا من هذه النوعية من الملوك، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط بإيقاعه السريع الذى يتناسب مع زفرات غضبه المتواصلة، كما آثر كون القافية (حرف النون) الذى يتصف بالجهر والشدة ؛ لينسجم ذلك مع عاطفته المتأججة، وفى سبق القافية بحرف المد، تمهيد لتفريغ تلك الشحنة من الغضب الذى يتردد فى صدره، بيد أنه ــ رغم هذا كله ــ يأبى إلا أن يحرك القافية بالكسر، بما فيه من ضعف؛ ليتوافق ذلك مع ضعف هؤلاء أمام الدين من جهة، وضعفه معنويا؛ أسى وأسفا على حالهم من جهة أخرى.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، لجأ إلى الطباق بين (القناعة وعدم الرضا) وبين (الرؤية وعدمها) وبين (الدنيا والدين) وكذلك المقابلة فى البيت الثانى بين الاستغناء بالله عن دنياهم، وبين استغنائهم بالدنيا عن الدين ، ولا يخفى ما فى التشبيه فى هذا البيت من الافتضاح لأمرهم بتلك المفارقة بينهم وبين غيرهم، ومن ثم آثر التنكير (لأناس)؛ تحقيرا لشأنهم، ونفورا من أحوالهم.

هذا بخصوص تلك النوعية من الملوك، وأما بخصوص علماء السلطة، فقد بلغه أن (إسماعيل بن علية) [3] قد تولى القضاء وأمر

---

(١) الورقة: ١٥، العصر العباسى الأول: ٤٠٥ .
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٣٧٣، العصر العباسى الأول: ٤٠٥، الورقة:١٥ ، يلاحظ أنه لجأ إلى (سناد الحذو) فى البيتين بين كلمتى الروى : (الدون ــ الدين) .
(٣) هو إسماعيل بن إبراهيم بن علية، من أهل البصرة، يكنى أبابشر، كان يشرب النبيذ حتى يحمل على الحمار، يحتاج من يرده إلى

الصدقات بالبصرة، فى نهاية عهد (هارون الرشيد)، فوجد عليه، ثم دعا بالدواة والقرطاس قائلا: "يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا"[١] ، ثم أرسل إليه هذه الأبيات لائما ومعنفا ومنبها إلى مدى غفلته ــ فى غمرة المنصب الدنيوى ــ عن رواياته بخصوص (ابن عون)[٢]، و(ابن سيرين)[٣]، يقول من بحر السريع[٤] :

يا جاعل الدين له بازيا ∴ يصيد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ∴ بحيلة تذهب بالدين
وصرت مجنونا بها بعدما ∴ كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ∴ عن ابن عون وابن سيرين
أين أحاديثك والقول فى ∴ لزوم أبواب السلاطين
تقول أكرهت وماذا كذا ∴ زل حمار العلم فى الطين

نحن أمام شخصية ثائرة، وعاطفة متأججة؛ غضبا وسخطا على هذه النوعية من العلماء الماديين الذين باعوا الدين بالدنيا ، وقد

منزله، ثم تاب حتى غدا من العباد بالبصرة، فكان صدوقا ورعا تقيا، حجة ثقة ثبتا فى الحديث الشريف، توفى: ١٩٣هـ . تاريخ بغداد: ٦/ ٢٣٠ ــ ٢٤٠ بتصرف ٠

(١) يقال: قشر العصا ، إذا نزع لحاءها، كناية عن الاستعداد للشر، كما يقال: قشر له العصا، إذا أبدى له عما فى ضميره ــ لسان العرب: ٥/ ٣٦٣٥ ٠

(٢) هو عبدالله بن عون الخراز الزاهد، أبومحمد البغدادى المحدث، روى عن الإمام مالك وطبقته، توفى: ٢٣٢هـ ــ العبر: ١/٣٢٤

(٣) هو محمد بن سيرين، أبوبكر بن أبىعمرو الأنصارى، مولى أنس ابن مالك النضرى، كان ثقة مأمونا عالما فقيها إماما ورعا أصما بكاء، توفى: ١١٠هـ ــ البداية والنهاية: ٩/ ٢٦٧ ٠

(٤) الموسوعة الشعرية: ٢٠، عبدالله بن المبارك: ٤١، طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٥، الورقة: ١٦، ١٧، العصر العباسى= =الأول: ٤٠٥، الإمام الربانى: ٢٩، ٣٠، سير أعلام النبلاء: ٣٦٤/٨ ــ البازى : جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم تميل أجنحتها إلى القصر، وتميل أرجلها وأذنابها إلى الطول ــ المعجم الوجيز: ٤٩ ٠

أفصح الشاعر عن عاطفته بأسلوب سهل، ومعان واضحة، ومن ثم كان موفقا فى الإيثار لبحر السريع؛ ليتناسب بخفته ورقته مع تلك السهولة، وذلك الوضوح من جهة، ومن جهة أخرى آثر القافية (بحرف النون) كصوت مجهور شديد؛ لينسجم مع قوة عاطفته، وشدة ثورته، ولكى تكون أمامه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة الغاضبة، آثر سبق القافية (بحرف الياء)، بيد أنه حرك القافية بالكسر، وما فيه من سمات الضعف؛ ليتفق مع ضعفه المعنوى، وهزيمته النفسية أمام سلوك تلك النوعية من العلماء.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى الأذهان، آثر تلك التعبيرات الموحية: ففى التعبير بالبازى وهو من جوارح الطير، إيماء إلى مدى احتياله على استغلال الدين، وجعله سلاحا معاديا لحقوق المحتاجين، وها هو ذا يؤكد هذا السلوك المشين، بقوله: (احتلت للدنيا ولذاتها) وفى وصفه بالجنون بها، إشارة جلية إلى مدى انشغال قلبه بهذه الدنيا التى آثرها على الدين، وفى التكرير للظرف (أين) لون من التقريع والتوبيخ الذى يؤكد مدى نفاقه فيما صدر عنه من أحاديث وروايات، خالف فعله فيها قوله، وليس أشد عند الله مقتا من ذلك: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، وفى قوله: (زل حمار العلم فى الطين)، إشارة إلى النهاية المؤسفة التى ورط فيها نفسه، دون أدنى عذر له فى ذلك، ولا يخفى ما فى التشبيه بالحمار من مدى التهكم والتحقير.

هذا إن دل فإنما يدل على مدى غيرة (ابن المبارك) على العلم وعلى العلماء المخلصين الأجلاء، ومن ثم لا يمل من إهداء النصح والإرشاد: أن ولاية الأعمال للسلطان مما ينقص الورع، إن كانت ابتغاء للدنيا على حساب الدين، وعلى حساب العلم الذى ينبغى أن

(١) سورة الصف: ٣ .

يكون خالصا لله وحده، لقد صدق (ﷺ) فيما بلغ، وأخلص لله فيما نصح، فكانت نصيحته أغلى جوهرة، وكان رد فعلها أحلى ثمرة، ذلك أن (ابن علية) لما بلغته هذه الرسالة، استشعر مدى خطئه ثم "بكى واستعفى"(١)، وأنشأ يقول من بحر السريع(٢):

أف لدنيا أبت تواتينى ∴ إلا بنقضى لها عرى دينى
عينى لحينى ضمير مقتلها ∴ تطلب ما ساءها لترضينى

نحن أمام عاطفة ثائرة ومتأججة بكل ألوان الندم، والاعتراف بالخطأ، من جانب هذا العالم الذى ساقته نفسه الأمارة بالسوء إلى مواطن الهلاك، بيد أن ضميره استيقظ من غفلته بمجرد تسلمه رسالة (ابن المبارك) السالفة الذكر ٠

وليس أدل على تلك الصحوة الإيمانية من الإفصاح عن شعوره نحو الدنيا بقوله: (أف لدنيا) للإيحاء بمدى تضجره، وغاية نفوره منها، ثم يعلل ذلك بنقضها عرى دينه، كما أن فى التعبير (بالحين) إيماء إلى سقوطه فى هوة الهلاك٠

وها هو ذا يوضح ذلك ويقرره بهذا الجناس الناقص بين (العين والحين)٠

كما حالفه التوفيق فى الإفصاح عن ندمه بهذا الأسلوب السهل الجلى، وهذا هو السر فى الإيثار لبحر السريع؛ ليتناسب بخفته ورقته مع تلك السهولة، وإن كان قد آثر القافية (بحرف النون) كصوت مجهور قوى، فذلك لكى ينسجم مع شدة ندمه، وقوة عاطفته الآسية من ناحية، ومن ناحية أخرى، آثر تحريك القافية بالكسر، وما فيه من ضعف؛ ليتواءم مع هذه الدرجة من الهزيمة المعنوية أمام تلك النفس الأمارة، ولم يكتف بهذا كله، بل أتبع القافية بحرف الإشباع

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٥ ٠
(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها. والحين (بفتح الحاء وسكون الياء) : الهلاك والمجنة، يقال: إذا حان الحين حارت العين ــ المعجم الوجيز: ١٨٢ ٠

(الياء)؛ كى يظل دوى ندمه مستمرا حتى تعلم به كل الأجيال، لعل ذلك يخفف ما ألم به من سوء الحال.

أضف إلى ذلك، أن (ابن المبارك) يريد من كل مسلم تقى ورع، أن يتحلى بالعزة والكرامة، وأن ينأى بنفسه عن مواطن الشبهات، أيا كان قدره، وأيا كان منصبه، فأهل الزهد والتصوف كانوا "رجالا أشداء، بلغوا من العزة فى جانب الله ما لم يبلغه مثلهم، بسبب التحرر من السيادة للمخلوق على حساب الدين، فلا خضوع إلا لله رب العالمين"[1] ، لهذا كان لهم ــ بفضل صلاحهم وإخلاصهم ــ مهابة فى النفوس، ووقار فى القلوب؛ إذ ليست الهيبة فى السلطان، وإنما الهيبة فى الإخلاص للواحد الديان ــ يقول من بحر الكامل[2]:

هدى الوقار وعز سلطان التقى ∴ فهو المهيب وليس ذا سلطان

نحن أمام شاعر يدعو إلى كل معانى العزة والكرامة؛ لأنه يمتلك بين جوانحه ــ هذه المرة ــ نفسا أبية، وغيرة على الإيمان وأهله قوية، وليس أدل على ذلك من نفيه الهيبة الحقيقية عن السلطان، وإثباتها لأهل التقوى والوقار، ولكى يقرر هذه المعانى القوية، آثر بحر الكامل، بثقله وامتداده وشدة جرسه، وجعل القافية (حرف النون) كصوت مجهور؛ لينسجم كل ذلك مع جلال الفكرة، وعمق التجربة ، ونظرا لتلك المشاعر المتأججة، آثر سبق القافية بحرف المد (الألف) ؛ كى يمنحه فسحة من الزمن؛ لتفريغ تلك الشحنة الهائلة التى تحمل الإحساس بكل معانى العزة والأنفة، بيد أنه ــ فى الوقت نفسه ــ حرك القافية بالكسر، وما فيه من ضعف؛ ليتناسب ذلك مع ضعف بعض النفوس الأمارة بما يجلب العار والشنار، حين ترى أن الهيبة فى السلطان وليس فى التقى والوقار.

ولكى يؤكد هذه الفكرة، ويزيدها تقريرا فى الأذهان، نجده يحذر كافة البشر، أن الخضوع لأدنى مخلوق وبخاصة السلطان على حساب

(١) أدب الزهد: ٦ بتصرف .
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٨ .

الدين، يعد نقصا فى الدين، وأنه لا خضوع بعز إلا لله رب العالمين، هو وحده الأحق بالسؤال دون خلقه أجمعين.يقول من بحر البسيط[1]:

لا تضرعن لمخلوق على طمع ∴ فإن ذاك مضر منك بالدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ∴ فإنما هى بين الكاف والنون
ألا ترى كل من ترجو وتأمله ∴ من البرية مسكين بن مسكين

لا تزال زفرات الغضب المتتابعة، تتردد فى صدره، ولا يزال بركان عاطفته يثور؛ سخطا ونعيا على هؤلاء اللذين يتهاونون فى كرامتهم من أجل عرض زائل، ومن ثم كان لإيثار البحر البسيط الذى يتسم بسرعة إيقاعاته؛ لتتفق مع تلك الزفرات المتلاحقة، وبسبب عاطفته المتوهجة، آثر القافية (بحرف النون) المعروف بالجهر والشدة؛ ليتفق ذلك مع قوة العاطفة، ولهذا السبب حرص على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يساعده على تفريغ هذا الكم من الأنفاس الحارة ، والزفرات المكلومة ؛ أسى وأسفا على هؤلاء ، بيد أنه آثر التحريك للقافية بالكسر، وما فيه من ضعف؛ لينسجم ذلك مع قهره المعنوى، وهزيمته النفسية؛ تأثرا بهذا السلوك المشين ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتعميقا فى النفوس، آثر هذا التنويع فى الأداء الأسلوبى: تارة بالأسلوب الإنشائى المتمثل فى قوله: (لا تضرعن، واسترزق الله، ألا ترى) وتارة بأسلوب التوكيد المتمثل فى قوله: (فإن ذاك، فإنما هى)، وتارة بالتنكير لكل من (مخلوق، مسكين)؛ للإثارة والتشويق؛ جذبا للأذهان، ولفتا للأنظار من جهة، وللإيحاء بوجوب السؤال للخالق القادر دون المخلوق العاجز ، وإلا ضاعت العزة، وزالت الكرامة من جهة ثانية ٠

أضف إلى ذلك مدى حرصه على التعبيرات الشفافة : ففى التعبير بقوله: (بين الكاف والنون) إيماء إلى مدى طلاقة قدرة الحق سبحانه،إذا قال للشىء كن فيكون،فخزائنه لا تنفد، ورزقه لا ينقطع،ومن ثم ينبغى أن يكون هو المسئول وحده بحق دون سواه، ثم نلحظ مدى الدقة فى إيثاره التعبير بلفظ العموم(كل)،ووصفه المسئول أصلا وفرعا ــ أيا كان قدره ــ

(١) الموسوعة الشعرية: ٢٠ . يلاحظ أنه لجأ إلى (سناد الحذو) فى بيتين متتالين بين كلمتى الروى: (بالدين ــ والنون) ٠

بالمسكنة،فى هذا تنبيه جلى إلى من يسأل السلطان أو مـــن دونـــه علـــى حساب الدين، أن يدرك جيدا أن الجميع مساكين؛لأنهم فى الحقيقة فقــراء إلى الله رب العالمين ٠

وفى مقام آخر يقرر: أن التعرف على السلطان ــ فى هذه الحال ــ يجلب لصاحبه المعرة والإساءات، بل إن الزيارة لــداره تعــد مـــن أشـــر الزيارات ــ يقول من الرمل المجزوء[1]:

والـــتمس رزقـــك مـــن ذى الــــ .:. ـــــعرش والــــــرب القـــــدير
وانـــأ مـــا اســـطعت هـــداك الـــ .:. ـــلـــه عـــــن دار الأمـــــير
لا تزرهـــــا واجتنبهـــــا .:. إنهـــــا شـــــر مـــــزور
تـــوهن الـــدين وتدنيـــ .:. ـــك مـــن الحـــوب الكـــبير
قبـــل أن تســـقط يـــا معـــ .:. ـــرور فـــى حفـــرة بـــير

ما زال الشاعر مستطردا فى ثورته العارمة، وغضبه الشــديد على هذه النوعية من السلاطين اللذين يؤثرون الدنيا علــى الــدين، مستعرضا ذلك فى أسلوب سهل، ومعان واضحة، ومن ثم آثر بحــر الرمل ، بخفته ورقته؛ لتتناسب مع تلك السهولة والوضوح، كما آثر كون القافية (حرف الراء) بما فيه من جهر وشدة؛ ليتناسب مع تلــك العاطفة القوية، والثورة العارمة، ومن ثم سبقها بحرف المد (الياء)؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة من الغضب الذى يمــور بــين جوانحه، ثم تتجلى براعته ــ إثر هذا كله ــ فــى تحريــك القافيــة بالكسر ، وما فيه من ضعف؛ لينسجم ذلك مع حاله التى تفصح عــن مدى حزنه وقهره؛ أسفا وتأثرا بهذا السلوك المقيت ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، حرص علــى التنويــع فــى الأداء: تارة بالأسلوب الإنشائى فى قوله: (والتمس، وانأ، لا تزرهــا،

(١) الموسوعة الشعرية: ٦ ، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٦ ــ الحوب: الإثم والهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ والمعـــرور: الذى تتأتى منه المعرة وهى الإساءة والمكروه ــ ســورة النســاء: مــن الآية: ٢، المعجم الوجيز: ١٧٦، ٤١٢ . كما يلاحظ أيضا تورطه فــى (سناد الحذو) فى بيتين متتالين بين كلمتى الروى: (الأمير ــ مزور) ٠

واجتنبها) وتارة بالأسلوب الخبرى فى قوله: (توهن الدين، تدنيك من الحوب) وتارة بأسلوب التوكيد فى قوله: (إنها شر مـزور) وتـارة بأسلوب النداء فى قوله: (يا معرور)، وتارة بالجملة الاعتراضية فى قوله: (هداك الله)؛ قصدا للإثارة والتشويق، وجذبا للأذهان والأنظار، وتحريكا للعقول والأفكار، حتى تتحقق المشاركة الفعالة بينه وبـين المتلقى فى الأحاسيس والمشاعر.

أضف إلى ذلك مدى حرصـه علـى التعبيـرات ذات الظـلال الإيحائية : ففى التعبير بقوله: ما اسطعت، إشارة إلى ضرورة الابتعاد عن السلطان وعن داره قدر الإمكان، إن كان ذلك على حساب الدين، كما نلحظ أن فى البيتين الأخيرين تعليلا وتفصيلا لإجمال سبق، فبعد أن وصف دار الأمير بأنها شر مزور، بسبب الزيارة المغرضة إليها، شرع فى بيان وتعليل هذا الحكم؛ فهـى تضـعف الـدين، وتـودى بصاحبها إلى الهلاك المبين، وحسبه أنه جلب لنفسه العار والشـنار، فاستحق أن يكون من أهل جهنم وبئس القرار.

تعقيب

نخلص من هذا كله، أننا أمام رجل "صالح جامع للعلم"[1]، كيف لا، وهو "الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام ذو المناقب"[2] لقد اجتمع فيه "من الخصال الحميدة ما لم يجتمع فى أحد من أهـل العلـم فـى زمانه فى الأرض كلها"[3]، وقد جذبت هذه الظاهرة الفريدة الجليلـة

(١) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، تاريخ بغداد : ١٠/ ١٥٥، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٠ .

(٢) التذكرة: ١/ ٢٧٤، الأعلام: ٤/ ٢٥٦، العبـر: ١/ ٢١٧، سـير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٦ .

(٣) عبدالله بن المبارك: ٣١، ٣٢، البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٨، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٧، تهذيب التهذيب:٥/ ٣٨٥، ٣٨٦،تهذيب الأسماء:

انتباه نفر من أصحابه الذين "اجتمعوا يوما؛ لعد وإحصاء خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فوجدوها خمسا وعشرين فضيلة"[١]، من هذا المنطلق، قال (الأسود بن سالم) [٢]: "إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام"[٣]، لما يعرف عنه من أمارات الولاية، وعلامات الزهد والصلاح، وإذا كان (أبويزيد البسطامى) [٤] قد أخبرنا بقوله: "إذا نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الشريعة"[٥]، فقد كان (ابن المبارك) شديد الالتزام بحدود الشريعة؛ تنفيذا للأوامر، واجتنابا للنواهى، حتى قيل: "إنه كان من الأبدال"[٦]، ومن ثم، كان "له من الكرامات ما لا يحصى"[١]، فكان

١/ ٢٨٥، التذكرة: ١/ ٢٧٦، النجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٣، العبر: ٢١٧/١، الأنساب: ٤/ ٢٥١، سير أعلام النبلاء: ٣٤١/٨ .

(١) بتصرف ــ تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥، شذرات الذهب: ١/ ٢٩٦، الإمام الربانى: ١٥، عبدالله بن المبارك: ١٤، ١٥، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥٢ .

(٢) هو الأسود بن سالم أبومحمد العابد، سمع ابن عيينة، وابن علية وغيرهما، كان ثقة ورعا فاضلا ، ومن الأولياء المعروفين بالخير، توفى: ٢١٣هـ ، أو ٢١٤هـ ــ تاريخ بغداد: ٧/ ٣٥ ــ ٣٧ بتصرف.

(٣) عبدالله بن المبارك: ٣٣ ، تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٨، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥٠ .

(٤) هو طيفور بن عيسى البسطامى، نسبة إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) يكنى أبا يزيد أو بايزيد، وهو من الزهاد المشهورين، كان ابن عربى يكنيه أبا يزيد الأكبر توفى: ٢٦١هـ ــ الأعلام: ٣/ ٣٣٩ .

(٥) شذرات الذهب: ٢/ ١٤٣ .

(٦) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٧، الإمام الربانى: ١٧، والأبدال: علم على إحدى طبقات الصوفية الذين يزعمون أنه إذا ذهب بدل، حل مكانه آخر ــ المعجم الوجيز : ٤١ .

مجاب الدعوة، ولا أدل على ذلك، من مروره "يوما برجل أعمى، فسأله الدعاء، فدعا له، فرد الله عليه بصره"(٢).

هكذا كانت ملامح شخصية (ابن المبارك)، وتلك كانت حياته الطويلة، على مدى ثلاث وستين سنة، حياة كلها كفاح فى كفاح، قضاها رحالة مسفارا؛ من أجل العلم الذى أخلص له، والجهاد الذى عشقه، والتجارة التى آمن بوجوبها، وربح منها الكثير والكثير، بيد أنه لم يضعف أمام فتنة المال، ولم يشغله ذلك عن التعبد الحق فى كل حال، فكان من المتصوفة الزهاد على مدى هذا العمر المبارك ، حتى شاء الله له بحسن الخاتمة، ووافته المنية حال "انصرافه من الغزو فى شهر رمضان، ودفن ببلدة (هيت): ١٨١هـ"(٣)، وهيت (بكسر الهاء) "بلدة على الفرات من نواحى بغداد، ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وسميت بذلك؛ لأنها فى هوة من الأرض، وما زال قبره بها يزار تبركا"(٤)، كان لوفاته هزة عنيفة، أحدثت وقعا أليما فى نفوس الجميع بلا استثناء: الإخوان والأصدقاء، والمساكين والفقراء، حتى الأمراء والخلفاء، فها هو ذا "هارون الرشيد لما بلغه نبأ موته، أذن

---

(١) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٧، الإمام الربانى: ١٧ .

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٧، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، الإمام الربانى: ٤٧ ، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥٠ .

(٣) الأعلام: ٤/ ٢٥٦، تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، عبدالله بن المبارك: ٤٦، التذكرة: ١/ ٢٧٩، الفهرست: ٢٨٤، العصر العباسى الأول: ٤٠٦، النجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٣، تاريخ بغداد: ١٠/١٦٨، الأنساب: ٤/ ٢٥١، الإمام الربانى: ٤٦، مرآة الجنان: ١/٣٨٢، البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٩، العبر: ١/ ٢١٧، المعارف:٥١١، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٩، ٣٧٠ .

(٤) وفيات الأعيان: ٣/ ٣٤، تهذيب الأسماء: ١/ ٢٨٦، الأنساب: ٤/٢٥١، مرآة الجنان: ١/ ٣٨٢، الأعلام: ٤/ ٢٥٦، المعارف: ٥١١، شذرات الذهب: ١/ ٢٩٦، معجم البلدان: ٥/ ٤٢٠، ٤٢١، العبر: ١/ ٢١٧ .

للناس أن يعزوه فيه"[1]، وما ذلك إلا لشدة صلاحه وتقواه، لقد بلغ الغاية فى الصدق والإخلاص لله فى جميع أحواله، فى خلواته وفى جلواته، حتى ظهرت له كرامات إثر وفاته ، كما ظهرت فى حياته ، ها هو ذا (الفضيل بن عياض) يسأله فى الرؤيا إثر موته: "أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال: الأمر الذى كنت فيه، قلت: الرباط والجهاد؟ قال: نعم، لقد غفر لى مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتنى امرأة من الجنة ، أو امرأة من الحور العين" [2] كما سأل (الفريابى) [3] الرسول (ﷺ) فى الرؤيا: "ما فعل ابن المبارك؟ فقال: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا"[4].

رحم الله (ابن المبارك) رحمة واسعة، وجزاه عما قدم للبشرية وللإسلام خير الجزاء، أما عن أثر شخصيته الجليلة فى شعره، فإنه بالنظر فى نظمه لحظت عدم احتوائه على بيت واحد من الهجاء؛ نيلا من الأعراض، وتتبعا للعورات، كيف وهو التقى الورع الذى تأدب بأدب الإسلام، فنأى بنفسه عن أية شبهات، كما لم أجد له بيتا واحدا من الغزل، بترديد اللوعة والغرام، والشوق والهيام، كيف وهو المشغول بأمور دينه وبزهده عن هذا اللون من الآثام، كما لم أعثر على بيت واحد فى المدح أو الفخر بذوى الجاه الذين يتيهون على

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٧، الإمام الربانى: ١٧٧، عبدالله ابن المبارك: ٤٥، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٤٥، ٣٦٦، ٣٦٩ .

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٨، ١٦٩، الإمام الربانى: ٦٢، عبدالله بن المبارك: ٤٦، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٧٠ .

(٣) هو محمد بن يوسف بن واقد الضبى بالولاء، التركى الأصل، أبوعبدالله الفريابى، كان من الحفاظ، وكان عالما بالحديث الشريف، أخذه بالكوفة عن سفيان، وقرئ عليه بمكة، وروى عنه البخارى ٢٦ حديثا ــ توفى: ٢١٢هـ ــ الأعلام: ٨/ ٢٠، ٢١ بتصرف.

(٤) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٩، عبدالله بن المبارك: ٤٦ .

الأنام، كيف وهو الزاهد الورع الذى لم يفتنه بريق المادة وزخرف الحياة ما دامت الأيام، لم يشتمل شعره على شىء من هذا كله، وإنما كان شعرا أخلاقيا، ينشد فيه المثل العليا، ويدعو إلى القيم السامية: كالتقليل من شأن الدنيا، وهوانها على العارفين، والتنديد بالنفاق وبالمنافقين، وكشف القناع عن الرياء والمرائين، وجذب الأنظار إلى الحقائق الإلهية؛ ترسيخا للإيمان بالله رب العالمين، وهذا ما ينبغى أن يكون من شخصية زاهدة متصوفة، عارفة بربها حق المعرفة.

لهذه الاعتبارات، صنفت شعره إلى ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الدينى، والأخلاقى، والوعظى، وبما أن الزاهد لن يكون جديرا بهذا اللقب المشرف، إلا إذا كان متدينا ورعا تقيا، يخاف الله فى خلواته وفى جلواته، وينعكس ذلك إيجابا على جميع أفعاله وسلوكياته، سواء أكان ذلك ترغيبا فى التقوى، وطلب العلم، والضرب فى الأرض؛ ابتغاء الرزق الحلال، أم ترهيبا من التهاون فى أمر الدين، والأكل لمال اليتيم، والجزع عند نزول البلاء من الله رب العالمين، ذلك ما يسفر عنه المبحث الثانى من تلك الدراسة.

المبحث الثانى
الاتجاه الدينى فى شعره

حين نتأمل شعره من خلال هذا الاتجاه، نلحظ أنه اتبع فيه أسلوبين؛ لتحقيق الثمرة من زهده ودعوته الصادقة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وذلك على النحو التالى٠

أولا ـ أسلوب الترغيب:

يتمثل هذا الأسلوب فى أمور كثيرة، من أبرزها: الترغيب فى تقوى الله، وطلب العلم، والتحرى للرزق الحلال، وسنعرض لذلك كله بشىء من التفصيل٠

الترغيب فى التقوى:

مما لا ريب فيه، أن للتقوى أهميتها البالغة، ومكانتها السامية فى نفس المؤمن الغيور على دينه، القوى فى إيمانه، وقدوتنا فى ذلك رسول الله (ﷺ) الذى كان كثير التضرع إلى ربه، يسأله نعمة التقوى بقوله: "اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى"(١)٠

وقد كان ابن المبارك (رحمه الله) شديد الحرص على ترغيبنا جميعا فى التقوى، شريطة البدء بنفسه أولا؛ كى يكون أسوة لسواه، ها هو ذا يتضرع إلى الله بالدعاء أن يمنحه العزيمة وقوة الإرادة على ذلك، فيقول من بحر الطويل(٢):

ويارب هب لى منك عزما على التقى ∴ أقيم به فى الناس حيث أقيم
ألا إن تقوى الله أكرم نسبة ∴ يسامى بها عند الفخار كريم
إذا أنت نافست الرجال على التقى ∴ خرجت من الدنيا وأنت سليم

الشاعر يمر بتجربة عظيمة وهى الترغيب فى التقوى التى هى جماع كل خير، وقد تولدت عن هذه التجربة عاطفة قوية بالإيمان بالله رب العالمين، وهذا هو السر فى إيثاره بحر الطويل، بثقله

(١) رياض الصالحين : ٢٤ ٠
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٧ ٠

وامتداده، وشدة جرسه ورنينه، وجعله القافية (حرف الميم) بما فيه من جهر وشدة، وإيثاره التحريك له بالضم الذى يومئ إلى الفخامة؛ ليتناسب ذلك كله مع جلال التجربة، وقوة العاطفة، ومن ثم حرص على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يساعده على التفريغ لهذا الكم من المشاعر الإيمانية الصادقة.

ولكى يزيد من تجربته جلاء ، ومن فكرته وضوحا وتقريرا من جهة، وجذبا للأذهان، واستقطابا للمشاعر من جهة أخرى، حرص على التنوع فى الأداء: تارة بالأسلوب الإنشائى فى قوله: (يا رب، هب لى، ألا إن تقوى الله) وتارة بالأسلوب الخبرى فى قوله: (أقيم به، يسامى بها) وتارة بأسلوب الشرط الذى يتمثل فى البيت الأخير، وتارة بأسلوب الالتفات من الخطاب إلى التكلم فى قوله: (ويا رب هب لى).

أضف إلى ذلك مدى حرصه على الإيثار لتلك التعبيرات الموحية: ففى التعبير بقوله: حيث أقيم، إشارة إلى مدى التزامه بالتقوى فى جميع سلوكياته، وسائر تصرفاته، أينما حل، وحيثما وجد؛ مراقبة وخشية لله تعالى، وفى قوله: إن تقوى الله أكرم نسبة، إيحاء بأن التقوى هى أجل شىء يتشرف المرء بالنسبة إليه؛ إذ لا تفاضل بين الأنام إلا به، وفى هذا ما فيه من التكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)، وقال (ﷺ) فى خطبة الوداع : "ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(٢)، وليس أدل على الظفر بهذا الشرف من إيثاره التعبير عنه بالتنافس

(١) سورة الحجرات ــ من الآية : ١٣ .
(٢) الترغيب والترهيب : ٣/ ٦١٢، ٦١٣ .

فى البيت الأخير؛ حتى يحظى صاحبه بالسعادة فى دنياه، وبالنعيم فى أخراه.

ثم نلحظه يوضح ــ إثر ذلك ــ أن الحظوة بهذا الشرف، لن تتحقق ، ولن تكون لها جدوى، حتى تؤتى التقوى ثمارها، ويكون لها أثرها الذى ينعكس على سلوكيات المؤمن، إما من خلال التقرب إلى الله بصلاة التطوع ــ يقول من بحر الخفيف[1]:

واغتنم ركعتين زلفى إلى الله ∴ إذا كنت فارغا أو مستريحا

نلحظ أن فى تقييده هذا النوع من الصلاة بوقت الفراغ والراحة، إيماء إلى أن المؤمن التقى ينبغى أن تكون جميع أوقاته عامرة بالتقرب إلى الله وطاعته، حتى فى أوقات فراغه واستراحته.

كما أن فى التعبير بالركعتين إيماء إلى أن التقرب إلى الله يتحقق بأقل عدد ممكن من الركعات، وأن لهذا عظيم الأجر ومضاعفة الحسنات، وفى التعبير بالزلفى، بيان بأن الهدف من الركعتين يتمثل فى هذا التقرب إلى الله سبحانه؛ طمعا فى النعيم، وهروبا من الجحيم.

ولا يخفى علينا هذا التمازج بين وضوح الفكرة، وسهولة العرض، وجلاء المعنى من جهة، وبين قوة العاطفة الإيمانية من جهة أخرى، ومن ثم كان الإيثار لبحر الخفيف بخفته ورقته، وبكون القافية (حرف الحاء) بهمسه وضعفه، ليتواءم كل ذلك مع هذا الوضوح للفكرة، وتلك السهولة للفظ، والجلاء للمعنى، أضف إلى ذلك مدى حرصه على تحريك القافية بالفتح بما فيه من استعلاء ؛ لينسجم ذلك مع قوة العاطفة، وصدق الإيمان الذى يعلو ولا يعلى عليه، ومن ثم آثر سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الطاقة الإيمانية ، وكأنه استشعر ــ إثر هذا كله ــ أن كل هذا

(١) الموسوعة الشعرية: ٣، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٨ .

الإبداع غير كاف فى الإفصاح عن عاطفته الجياشة، فأتبع القافية بحرف (الألف)؛ كى يظل صدى إيمانه القوى، وعاطفته المتأججة مستمرا حتى يصل إلى كل الأرجاء، ويعم جميع الأنحاء.

هذا عن جانب الترغيب فى صلاة التطوع ، وأما عن جانب الترغيب فى بذل المعروف فيتمثل فى قوله من بحر البسيط[1]:

والعرف من يأته تحمد عواقبه ∴ ما ضاع عرف وإن أوليته حجرا

نظرا لقوة الفكرة، وجلال القضية التى يدعو إليها، وشدة العاطفة الدينية فى الترغيب فى صنع المعروف، كان الإيثار لبحر البسيط بامتداده وقوة إيقاعه، وكذلك الإيثار للقافية (بحرف الراء) وما يتصف به من جهر وشدة، ثم التحريك له بالفتح الذى يرمز إلى الفخامة؛ ليتناسب كل ذلك مع جلال تلك القضية ، ومدى أهميتها الإيمانية.

ولكى يزيد من جلاء الفكرة، والتوضيح والتقرير للقضية ، حرص على هذا التنويع فى الأسلوب: تارة بأسلوب الشرط فى قوله: (من يأته تحمد عواقبه، إن أوليته حجرا) وتارة بأسلوب النفى فى قوله: (ما ضاع عرف) وتارة بالإيجاز بالحذف لجواب الشرط فى الشطر الثانى لدلالة ما قبله عليه؛ قصدا للإثارة والتشويق، وجذبا للمشاعر، وإيقاظا للأحاسيس، حتى تتحقق المشاركة الإيجابية بينه وبين المتلقى، وأخيرا لا يخفى علينا ما فى الشطر الثانى من الإيحاء بشدة الترغيب فى فعل المعروف الذى ينبغى ألا يتردد التقى فى صنعه؛ لأنه باق ولن يضيع أبدا، ولله در القائل: "لا يذهب العرف بين الله والناس"[2]، وحتى لو جحده الجاحد وكفر به، فحسب صاحبه

(١) الموسوعة الشعرية: ٩، عبدالله بن المبارك: ٤١ .
(٢) نكت الأمثال : ٩٩ .

شرفا، أن الجزاء عند الله وحده، ها هو ذا يؤكد ذلك بقوله من بحر الوافر[1]:

يد المعروف غنم حيث كانت ∴ تحملها شكور أو كفور
ففي شكر الشكور لها جزاء ∴ وعند الله ما كفر الكفور

الشاعر يعرض لنا فكرة جليلة قوية، تتمثل فى لفت الأنظار إلى مدى أهمية المعروف وبيان قيمته، ومن ثم كان الإيثار لبحر الوافر، باعتباره أحد البحور الثقيلة الممتدة الشديدة الجرس؛ ليتناسب ذلك مع قوة الفكرة، وجلال التجربة، كما حرص على كون القافية (حرف الراء) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة، والتحريك له بالضم بما فيه من الفخامة؛ لينسجم ذلك مع شدة حماسه فى الدعوة إلى ضرورة صنع المعروف بغض النظر عن رد الفعل تجاه صاحبه، ومن ثم آثر سبق القافية بحرف المد (الواو)؛ كى يساعده على تفريغ هذا الكم الهائل من العاطفة الحماسية التى تمور فى صدره.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى النفوس، عمد إلى الطباق بين (الشكر والكفر) وكذلك بين (الشكور والكفور) ومراعاة النظير حين عبر بالشكر فى جانب الشكور، وبالكفر فى جانب الكفور، والتفصيل بعد الإجمال، فبعد أن صرح فى البيت الأول بذكر الشكور والكفور شرع فى الثانى ببيان صنيع وأثر فعل كل منهما أمام المعروف، ولا يخفى ما فى الجمع بين الشكور والكفور من الإيحاء باستواء الأمرين أمام المعروف الذى يبقى ولا يذهب سدى، وها هو ذا يؤكد ذلك : تارة بالأسلوب الخبرى، حين يصفه بكونه غنما لا

(١) الموسوعة الشعرية : ٩ ، يلاحظ تورطه فى أشد أنواع (الإيطاء) قبحا، حين كرر كلمتى الروى (كفور ــ الكفور) بلفظهما ومعناهما فى بيتين متتاليين، وكان ينبغى الفصل بينهما بسبعة أبيات على الأقل.

غرما، وتارة بأسلوب القصر بطريق التقديم، وذلك فى قوله: (وعند الله ما كفر الكفور)٠

الترغيب فى طلب العلم:

إذا كان الرسول (ﷺ) قد حثنا ورغبنا فى طلب العلم؛ تقربا إلى الله تعالى بقوله: "من التمس طريق يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وقوله: يأيها الناس تعلموا، إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين"[1] فابن المبارك يقرر هذه الحقيقة بقوله من بحر الطويل[2]:

تعلم فليس المرء يولد عالما ∴ وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ∴ صغير إذا التفت عليه المحافل

لا شىء فى الحياة يعدل العلم شرفا وسموا، نحو ــ إذن ــ أمام تجربة عميقة، وفكرة جليلة، وعاطفة قوية، ومن ثم كان الإيثار لبحر الطويل، بامتداده وثقله وشدة رنينه، والحرص على كون القافية (حرف اللام) بما فيه من الجهر والشدة، والتحريك له بالضم بما فيه من الفخامة؛ ليتناسب كل ذلك مع جلال الفكرة، وقوة العاطفة، ومن ثم كان الإيثار لألف التأسيس؛ حتى تساعده وتمنحه الفرصة الكافية لتفريغ تلك الشحنة من العاطفة القوية إزاء هذا التقدير الجليل للعلم٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، وإثارة وتشويقا، حرص على التنويع فى الأداء، وذلك من خلال التوظيف للأساليب الآتية: الطباق بين (أخو علم، جاهل) وكذلك بين (كبير، صغير)، والأسلوب الإنشائى فى قوله: (تعلم، لا علم عنده)، والأسلوب الخبرى فى قوله: (يولد عالما، هو جاهل) وأسلوب النفى فى قوله: (فليس المرء يولد عالما، وليس أخو علم كمن هو جاهل) وأسلوب التوكيد فى قوله: (وإن كبير

(١) فتح البارى: ١/ ١٧١، ١٩٤ ٠
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٥ ــ المحافل: أماكن اجتماع الناس ــ المعجم الوجيز : ١٦١ ٠

القوم)، وأسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغائب فى قولـه: (تعلـم فليس المرء يولد عالما) وأخيرا لا يخفى علينا ما فى التعبير بـالأمر (تعلم) من حث شديد، وترغيب أكيد فى الطلب للعلم، ثم يؤكـد هـذه الفكرة حين يصرح بهذه الحقائق الثلاث: أن المرء يولد خالى الذهن من كل شىء، ثم أعطاه الله المستقبلات للعلم حتى يحسن اسـتغلالها فى طلبه، قال تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]، وأنه لا مساواة البتة بين العالم والجاهل، قال تعـالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾[2]، وأن كبير القوم مهما احتفوا به، هو فى الحقيقة صـغير إن تجرد من شرف العلم الذى يرفع قدر صاحبه، قال سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾[3].

فى خضم هذه الحقائق؛ التى ترغبنا وتحثنـا علـى الحظـوة بشرف الطلب للعلم، لم يغفل عن النصح بالآداب التى ينبغى أن يتحلى بها طالب العلم، ها هو ذا يشير إلى بعضها فـى قولـه مـن بحـر المنسرح[4]:

يـا طالـب العلـم بـادر الورعـا ∴ وهـاجر النـوم واهجـر الشـبعا

بما أن المقام مقام الإهداء للنصائح والإرشادات، وهذا يستدعى ــ رغم قوة العاطفة وجلال الفكرة ــ سهولة الأسـلوب، ووضـوح المعنى ، حتى يستقر فى ذهن المتلقى، ويصل إلى قلبه مـن أقـرب طريق، ومن ثم كان الإيثار لبحر المنسرح، بخفته ورقته التى تنسجم مع تلك السهولة، وذلك الوضوح، بيد أنه حرص ــ رغم ذلك ــ على

(١) سورة النحل : ٧٨ .
(٢) سورة الزمر ــ من الآية: ٩ .
(٣) سورة المجادلة ــ من الآية : ١١ .
(٤) الموسوعة الشعرية: ١١ ــ الورع: التحرج والتوقى عن المحارم، ثم استعير للتأثم من الحلال المباح ــ المعجم الوجيز: ٦٦٥ .

كون القافية (حرف العين) كصوت يجمع بين الرخاوة والجهر، غير أنه آثر الجهر هنا، وحرص كذلك على التحريك للقافية بالفتح، بما فيه من معنى الفخامة؛ ليتفق كل ذلك مع قوة العاطفة، وجلال الفكرة، وكأنه استشعر فى نفسه ــ إثر هذا الإبداع الفنى ــ أنه غير كاف فى الإفصاح التام عن تلك العاطفة القوية، فأتبع القافية بحرف المد (الألف)؛ كى يظل صدى نبرة نصحه موصولا ومستمرا حتى يصل إلى كل مكان على ظهر البسيطة.

ولكى يزيد الفكرة والمعانى جلاء وتقريرا، حرص على التصريع بين الشطرين، والتنويع فى الأسلوب الإنشائى : تارة بالنداء (يا طالب) وتارة بصيغة الأمر (بادر، هاجر، اهجر)؛ قصدا للإثارة والتشويق، وجذبا للأسماع، واستقطابا للمشاعر، أضف إلى ذلك شدة حرصه على تلك التعبيرات ذات الظلال الشفافة: ففى الوصف لطالب العلم بالورع، إيماء إلى ضرورة تحليه بقوة الإيمان لدرجة التأثم من المباح، حتى يمن الله عليه بالفتح المبين، وفى حثه على هجر النوم، إشارة إلى ضرورة تميزه دائما بالحيوية والنشاط، ولن يتحقق ذلك إلا بالهجر للشبع الذى يؤثر سلبا على الفطنة ونضارة العقل، ولله در القائل : "البطنة تذهب الفطنة، أو تأفن الفطنة"(١)، وصدق الرسول الكريم (ﷺ) حين نصحنا بوضع هذا البرنامج الغذائى الصحى الذى يتمثل فى قوله: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه"(٢).

وفى مقام آخر، ينصح طالب العلم بضرورة أن يتحلى بالحلم، ها هو ذا يبدأ بنفسه أولا، حين يرفع أكف الضراعة إلى الله بالدعاء

(١) يقال: أفن الفصيل ما فى ضرع أمه، إذا شرب ما فيه،والمراد: أن الشبع والامتلاء يضعف فطنة صاحبه فلا يكون فطنا عاقلا. مجمع الأمثال: ١/ ١٨٥ ــ رقم: ٥٣٤، لسان العرب ١/ ٩٩، ٣٠٣ .

(٢) صحيح الإمام الترمذى: ٩/ ٢٢٤ .

الذى يملأ الآفاق، أن يمن عليه بالحلم؛ فهو سيد الأخلاق ، يقول من بحر الطويل[1]:

أيا رب يا ذا العرش أنت رحيم ∴ وأنت بما تخفى الصدور عليم
فيا رب هل لى منك حلما فإننى ∴ أرى الحلم لم يندم عليه حليم

بما أن المقام مقام الخشوع والمناجاة، فالعاطفة نحو الإحساس بقيمة العلم ومدى أهميته مازالت جياشة، والفكرة مازالت مغلفة بالقوة والجلال، ومن ثم كان الإيثار لبحر الطويل بامتداده وثقل جرسه، والإيثار للقافية (بحرف الميم) بما فيه من الجهر والشدة، والتحريك له بالضم، بما فيه من الفخامة؛ ليتوافق كل ذلك مع قوة العاطفة وجلال الفكرة، من هذا المنطلق حرص على سبق القافية بحرف المد (الياء) حتى يتحقق الاستمرار لصوت التضرع والمناجاة، فيطرق سمع الأجيال فى كل مكان٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى النفوس، وجذبا وتشويقا للقلوب، حرص على هذا التنوع فى الأسلوب : تارة بالتصريع بين الشطرين، وتارة بالجناس الناقص بين (عليم، حليم) وتارة بالأسلوب الإنشائى فى قوله: (أيا رب، فيا رب، هل لى منك حلما) وتارة بالأسلوب الخبرى فى قوله: (أنت رحيم، وأنت عليم) وتارة بأسلوب التوكيد فى قوله: (إننى أرى الحلم) وتارة بأسلوب الجزم فى قوله: (لم يندم عليه حليم) ٠

هذا بالإضافة إلى الحرص على التعبيرات الموحية: ففى التكرير للنداء (يا رب)، إيماء إلى مدى التذلل والافتقار إليه سبحانه، والأمل فى تحقيق أمنيته وهى المن عليه بنعمة الحلم، ثم يؤكد هذا التذلل بأسلوب الاستعطاف المتمثل فى قوله: (هل لى منك حلما)، وإذا كان الحلم يتبوأ هذه المكانة السامية، فالأجدر بطالب العلم أن يلتزمه

(١) الموسوعة الشعرية: ١٧ــ الحلم (بكسر الحاء) : الأناة وضبط النفس والعقل ــ المعجم الوجيز: ١٦٩ ٠

ولا يفارقه فى شئونه بعامة، وفى حال طلبه العلم بخاصة، مع ضرورة المراعاة لتقييده العلم؛ خشية النسيان،والاستفادة من العلماء الأجلاء فى كل زمان ومكان ــ يقول من بحر الرمل المجزوء[1]:

أيها الطالب علما ∴ إيت حماد بن زيد[2]
فاطلب العلم بحلم ∴ ثم قيده بقيد
لا كثور[3] وكجهم[4] ∴ وكعمرو بن عبيد[5]

لا يزال الشاعر مستمرا فى النصح لطالب العلم بهذا الأسلوب السلس، وبتلك المعانى الجلية، ومن ثم آثر بحر الرمل؛ ليناسب بخفته ورقته تلك السهولة، وذلك الوضوح ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى الأذهان، حرص على هذا التنويع فى الأداء: تارة بالجناس الناقص بين (العلم، الحلم) وبين (زيد، قيد) وتارة بالمقابلة بين البيت الذى يشير فيه إلى ضرورة التقييد للعلم، والبيت الثالث الذى يشير فيه إلى عدم مراعاة ذلك،

---

(١) الموسوعة الشعرية: ٥ ٠

(٢) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدى البصرى أبو إسماعيل، شيخ العراق فى عصره، وأحد أئمة الحديث الشريف، ومن الحفاظ المجودين، يحفظ أربعة آلاف حديث، وخرجها الأئمة الستة ــ توفى:١٧٩هـ ــ البداية والنهاية:١٠/ ١٧٤، والأعلام: ٢/١٧١ ٠

(٣) هو ثور بن يزيد الكلاعى أبوخالد، كان من رجال الحديث الشريف، ويعد فى الثقات، قال عنه يحيى القطان: ما رأيت شاميا أوثق منه، وقال عنه وكيع: هو أعبد من رأيت ــ توفى ببيت المقدس: ١٥٣هـ ــ الأعلام: ٢/ ٨٨، تهذيب الأسماء:١/ ١٤١ ٠

(٤) هو جهم بن مسعود الناجى، أحد الأشراف الوجوه، كان مقامه بمرو، وله فيها شأن، قتل فى فتنة الضحاك بن قيس: ٧٤٦م . الأعلام: ٢/ ١٣٩ ٠

(٥) هو عمرو بن عبيد أبوعثمان البصرى، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين ــ توفى بمران قرب مكة:= =٦٧١م، ورثاه المنصور، ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . الأعلام: ٥/ ٢٥٢ ٠

وتارة بأسلوب العطف المختلف:مرة بالأداة(لا) التى تفيد إثبات الحكم لما قبلها،ونفيه عما بعدها؛ إيماء إلى ضرورة الإتيان(لحماد بن زيد) والتقيد بمنهجه دون سواه، ومرة بالأداة (ثم) وما فيها من تراخ؛ للإيحاء بضرورة وجود مساحة زمنية كافية بين الإنصات للعلم، وبين التقييد له، وها هو ذا يعضد ذلك بأسلوب التشبيه بين البيت الثالث وما قبله، تأكيدا لتلك المفارقة بين (حماد) وبين هؤلاء، ثم يستطرد فى هذا التنوع فى الأداء، حين يأتى بهذا الأسلوب الإنشائى المتمثل فى النداء (أيها الطالب) وفى الأمر (إيت، اطلب، قيد) أضف إلى ذلك مدى الحرص على هذه التعبيرات الموحية: ففى إيثاره الإتيان لحماد بن زيد بخاصة.إشارة إلى مدى غزارة علمه،وبراعته فى علم الحديث الشريف، أما فى ضربه المثل بثور، وجهم، وعمرو بن عبيد، فهو للتحذير من السير على نهج هؤلاء، ليس طعنا فى علمهم، أو قدحا فى أخلاقهم، فقد كانوا من العباد الزهاد، والعلماء الأجلاء، بيد أنهم كانوا يعتمدون دائما على الذاكرة التى كثيرا ما تخون الإنسان، فإن آفة العلم النسيان، وفى هذا إشارة جلية إلى ضرورة التقييد للعلم؛ خوفا من الضياع، حتى يعم نفعه جميع البقاع.

وإذا كانت هذه أبرز السمات التى ينبغى أن تتحقق فى طالب العلم، فهناك العديد من السمات ينبغى أن تتحقق أيضا فى العلماء أنفسهم، من حيث العلم الغزير، والعقل الأريب، والرأى السديد، ها هو ذا يفصح عن ذلك من خلال الترغيب فى حضور مجالسهم، وضرورة الاستفادة من علمهم وأدبهم ، يقول من بحر الطويل[1]:

ولى جلساء ما أمل حديثهم ∴ ألباء مأمنون غيبا ومشهدا
إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم ∴ معينا على دفع الهموم مؤيدا
يفيدوننى من علمهم على ما مضى ∴ وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا
بلا رقبة أخشى ولا سوء عثرة ∴ ولا أتقى منهم لسانا ولا يدا

(١) الموسوعة الشعرية: ٥ ــ مفندا: ضعيف الرأى . المعجم الوجيز: ٤٨١ .

فإن قلت أحياء فلست بكاذب ∴ وإن قلت أموات فلست مفندا

نحن أمام فكرة جليلة، وتجربة عميقة، وعاطفة قوية، تتمثل فى صدق هذا الإحساس نحو العلماء، وما ينبغى على المرء إزاءهم، من هذه المنطلق كان الإيثار لبحر الطويل، بامتداده وقوة جرسه، وشدة رنينه، والإيثار أيضا للقافية (بحرف الدال) باعتباره أحد الأصوات الشديدة الانفجارية، والتحريك له بالفتح وما فيه من الاستعلاء؛ لينسجم كل ذلك مع قوة العاطفة، وعمق التجربة، وسمو المعانى، ولم يكتف بهذا، وكأنه أحس أن كل هذا الإبداع لم يف بالغرض فى النقل المكثف لعاطفته الجياشة، فأتبع القافية بحرف الإشباع (الألف)؛ كى يستمر دوى أحاسيسه العميقة، ومشاعره الفياضة متصلا ، حتى يصل إلى كل البقاع، ويعم جميع الأنحاء.

أضف إلى ذلك مدى الحرص على التعبيرات الموحية: ففى وصفه لحديثهم بعدم الملل، ترغيب وتشويق لكل تقى أن يحظى بمجالس العلم التى تضفى أحاديثها على النفس بشرا وطمعا فى رحمة الله، وفى إيثاره التقييد للعلم بما مضى، إيماء إلى ضرورة المدارسة والاستفادة من سير السلف الصالح؛ فهم القدوة فى عمل الصالحات، ولهم شرف النهل من سيد الكائنات (ﷺ) ، كما أن فى الجمع بين اللب والأمانة والعقل والتأديب والرأى السديد، بيانا بالسمات التى ينبغى أن يتحلى بها العالم، حتى يؤتى علمه ثماره المرجوة، وقد استعان الشاعر على إبراز فكرته وتقريرها فى الأذهان، من خلال استخدامه أسلوب الطباق بين الغيب والمشهد، وبين الأحياء والأموات، وكذلك نفيه التفنيد عن نفسه؛ كى يومئ بهذا كله إلى استمرارية العطاء المتجدد من العالم المخلص، يستوى فى ذلك كونه حيا أو ميتا٠

ثم يصطفى من بين العلماء نموذجه المفضل وهو (مسعر بن كدام)[١]الذى يسود حلقته السكينة والوقار. يقول من بحر الكامل[٢]:

من كان ملتمسا جليسا صالحا ∴ فليأت حلقة مسعر بن كدام
فيها السكينة والوقار وأهلها ∴ أهل العفاف وعليه الأقوام

فى الإيثار لبحر الكامل ، بثقله وامتداده وشدة جرسه، ولكون القافية (حرف الميم) كصوت مجهور قوى، اتفاق كل ذلك مع عاطفته القوية، حيث التقدير العظيم، لهذا العالم الجليل، ولم يقتصر على ذلك، بل حرص على سبق القافية بحرف المد (الألف)؛ كى يمنحه الفرصة

(١) هو مسعر بن كدام الحافظ الكوفى ، كان لديه نحو ألف حديث، قال عنه يحيى القطان: ما رأيت أثبت منه، وقال شعبة: كنا نسميه المصنف، وقال أبونعيم: مسعر أثبت من سفيان وشعبة، توفى: ١٥٥هـ . البداية والنهاية: ١٠/ ١١٤، العبر : ١/ ١٧٢ ٠
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٧ ٠

لتفريغ تلك الشحنة من الإحساس الفياض بمدى التكريم للعلماء بعامة، ولهذا العالم بخاصة.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى الأذهان، وجذبا للمشاعر والأسماع، آثر هذا التنوع فى الأداء: تارة بأسلوب الشرط فى البيت الأول، وتارة بأسلوب القصر بطريق التقديم فى قوله: (فيها السكينة والوقار)، وتارة بالأسلوب الخبرى فى قوله: (أهلها أهل العفاف)، وتارة بالتنكير للحلقة والجليس؛ للإيحاء بالتبجيل لها ولمن يرتادها، وتارة بالتعريف للسكينة والوقار؛ للإيماء إلى أن هاتين السمتين من السمات المعهودة فى حلقة (ابن كدام)، وفى هذا ــ بلا ريب ــ إيماء إلى مدى الصمت والهدوء الذى يخيم على جميع الحضور؛ إنصاتا لهذا العالم الجليل، وشدة الدلالة على مدى غزارة علمه، ومدى استفادة الحضور من فضله.

إثر هذا العرض للسمات التى ينبغى أن تتحقق فى طالب العلم، وفى العالم نفسه، يتأكد فى نفوسنا مدى قيمة وأهمية العلم، وحلاوة ثماره التى يجنيها صاحبه، فهو الشرف والأدب، وهو الجاه والحسب والنسب، لمن عدم ذلك كله بعد أو اقترب، بدونه يغدو الشريف ذئبا وضيعا، وبه يجنى الجاهل نسبا رفيعا ــ هكذا يقرر ابن المبارك قائلا من بحر البسيط[1]:

العلم زين وتشريف لصاحبه ∴ فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
لا خير فيمن له أصل بلا أدب ∴ حتى يكون على ما فاته حدبا
كم من شريف أخى عى وطمطمة ∴ فدم لدى القوم معروف إذا انتسبا
فى بيت مكرمة آباؤه نجب ∴ كانوا رءوسا فأمسى بعدهم ذئبا

(١) الموسوعة الشعرية: ٢ ــ الحدب: العطوف الحنون، والعى: العجز عن المنطق بعدم بيان المراد، والطمطمة: عجمة فى لسان الرجل لا يفصح، والفدم: العيى الثقيل الفهم، والمقرف: من القرف وهو مخالطة ما يستكره . المعجم الوجيز: ١٣٨، ٤٤٤، ٤٦٤، ٤٩٩، لسان العرب: ٤/ ٢٧٠٦ .

وتجاهل مقرف الآباء ذى أدب ∴ نال العلاء به والجاه والنسبا

الشاعر فى معرض الحديث عن ثمار العلم وفوائده، وقد أعرب عن تلك التجربة العميقة بعاطفة قوية تضفى على ذوى العلم الشرف والسمو، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط، بما فيه من سرعة الإيقاعات المتلاحقة؛ ليتناسب ذلك مع تلك الفوائد المتعددة، كما آثر كون القافية (حرف الباء) باعتباره أحد الأصوات الشديدة الانفجارية المجهورة، ثم التحريك له بالفتح بما فيه من الاستعلاء؛ لينسجم ذلك مع قوة العاطفة، وعمق التجربة، ثم أردف القافية بألف المد؛ للإطلاق والاستمرار لتلك الأحاسيس المتدفقة، والعاطفة القوية.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، حرص على هذا الجناس الناقص بين (أدبا، حدبا) كما أن فى التعبير بكم الخبرية، إشارة إلى كثرة الشرفاء شكلا فى الحسب والنسب، بيد أنهم ــ فى الحقيقة ــ ذئاب ؛ لتجردهم من شرف الانتساب إلى العلم، وفى التشبيه لهم بالذئاب، إيحاء بمدى الخبث والدهاء، وغير ذلك من السمات التى تتنافى مع جلال العلم، وتتوافق مع ألد الأعداء، وهذا إن دل فإنما يدل على أن معيار التبجيل والأهمية لكل امرئ يكمن فيما يحسنه، ويا حبذا لو كان ممن يتشرفون بالانتساب إلى العلم.

ولله در الإمام على (كرم الله وجهه) حين قال من بحر البسيط[1]:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ∴ على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ∴ والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا ∴ الناس موتى وأهل العلم أحياء

الترغيب فى التحرى للرزق الحلال:

صدق الرسول الكريم (ﷺ) حينما حذر من يحرص على المال الحرام فى كسبه، بقوله: "أيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٧ .

به"[1]، من هذا المنطلق، كان (ابن المبارك) يتحرى الحلال فى معاشه، حتى بلغ من شدة ورعه، أنه كان يتأثم من التورط حتى فى الشبهات، ومما أثر عنه فى ذلك: "رد درهم من شبهة ، أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ... حتى بلغ إلى ستمائة ألف"[2]، وها هو ذا يؤكد ذلك بما يرويه عن رسول الله (ﷺ): "إنى لأنقلب إلى أهلى، فأجد الثمرة ساقطة على فراشى، فلا أدرى أمن تمر الصدقة هى؟ أم من تمر أهلى؟ فلا آكلها"[3].

وإذا بحثنا عن السبب الرئيس فى التحرى للحلال، أجابنا (ابن المبارك) بأنه التوفيق الإلهى بنعمة القناعة، حيث يقول من بحر المنسرح[4]:

لله در القنوع من خلق ∴ كم من وضيع به قد ارتفعا
يضيق صدر الفتى بحاجته ∴ ومن تأسى بدونه اتسعا

بما أن المقام مقام النصيحة بضرورة التحرى للكسب الحلال، فالتجربة عميقة، والفكرة جليلة، والعاطفة قوية، ومن ثم كان الإيثار لكون القافية (حرف العين) بما فيه من شدة وجهر ، والتحريك له بالفتح بما فيه من استعلاء؛ لينسجم كل ذلك مع عمق التجربة، وجلال الفكرة، وقوة العاطفة، وليس أدل على هذا من إتباعه القافية بحرف المد (الألف)؛ كى يتحقق ــ لهذه الدرجة من الحماس العاطفى ــ الاستمرار، فتطرق سمع المتلقى فى جميع الأقطار.

ولكى يزيد الفكرة جلاء، والمعانى وضوحا وتقريرا، آثر هذا التنويع فى الأداء الأسلوبى: تارة بالطباق بين (الضيق والاتساع)

---

(١) الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٤٧، إحياء علوم الدين: ٢/ ٩٠ ــ والسحت: ما خبث وقبح من المكاسب فلزم عنه العار . المعجم الوجيز: ٣٠٤ .
(٢) عبدالله بن المبارك : ٢٥ .
(٣) حلية الأولياء: ٨/ ١٨٧ .
(٤) الموسوعة الشعرية: ١٠ .

وبين (القنوع الذى سمت منزلته والوضيع) وتارة بأسلوب الشرط فى قوله: (ومن تأسى بدونه اتسعا) وتارة بأسلوب القصر بطريق التقديم فى قوله: لله در القنوع من خلق) إيماء إلى التخصيص لهذا القنوع بالتعظيم من شأنه ، ومن ثم آثر التنكير للخلق؛ تأكيدا لهذا التعظيم، وتارة بكم الخبرية فى قوله: (كم من وضيع) إيماء إلى كثرة هذه النوعية غير الراضية ، ومن ثم آثر أيضا التنكير للوضيع ، لإفادة مدى التحقير من شأنه، وتارة بأسلوب التجسيم للمعنوى فى هيئة المحسوس، وذلك حين شبه الحاجة بالشىء المادى الذى جعل الصدر له وعاء، يضيق عند الجشع، ويتسع عند الرضا وعدم الطمع، وهذا ــ لعمرى ــ يمثل قمة السعادة بعينها ٠

لم يكتف (ابن المبارك) بذلك، بل نلحظه ــ فى مقام آخر ــ يؤكد هذه الحقيقة بأن الغنى الحقيقى هو غنى النفس، وهذا اللون من الغنى لن يتحقق إلا بهذه النعمة، نعمة القناعة، وإلا عاش صاحبه فقيرا فى دنياه، تعيسا فى أخراه ــ يقول من بحر البسيط[1]:

ما ذاق طعم الغنى من لا قنوع له ∴ ولن ترى قانعا ما عاش مفتقرا

تقريرا لعمق التجربة، وتأكيدا لقوة العاطفة، وإبرازا لمطالب النفس المتلاحقة، والتى لا تنتهى عند من حرم نعمة القناعة، يؤثر

الشاعر بحر البسيط، بسرعة إيقاعاته التى تتفق وتلك المطالب المتتابعة، كما حرص على كون القافية (حرف الراء) كصوت شديد مجهور، وحركه بالفتح، بما فيه من معانى الاستعلاء؛ لينسجم كل ذلك مع عمق التجربة، وقوة العاطفة، وسمو الفكرة، ثم يتجلى هذا الإبداع الفنى فى مدى حرصه ــ إثر ذلك ــ على امتداد صدى

(١) الموسوعة الشعرية: ٩، عبدالله بن المبارك: ٤١ ٠

صوته، واستمرار دوى حماسه لفكرته، فأتبع القافية بألف الإطلاق؛ كى تساعده على تحقيق ما أراد .

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، حرص على التنوع فى الأداء: تارة بالطباق بين (الغنى والفقر) وبين (لا قنوع، قانع) وتارة بأسلوب النفى فى قوله: (ما ذاق، لا قنوع له، لن ترى) وتارة بالإيثار لصيغة (فعول) فى قوله: (من لا قنوع له)؛ مبالغة فى نفى القناعة بعمومها عمن فقد نعمة الغنى الحقيقى، وهو غنى النفس .

وإذا كان الأمر كذلك، فما أجمل التحرى للمال الحلال ما دامت الأيام، حتى لو غذى صاحبه بالخشن من الطعام، عندئذ تكون النجاة من نار السعير، والحظوة برضا الله العلى القدير ــ يقول من الرمل المجزوء[(١)]:

كل من الجاروش والرز ∴ زومن خبز الشعير
واجعلن ذاك حلالا ∴ تنج من نار السعير

نلحظ مدى البراعة الفنية فى الإيثار لبحر الرمل، باعتباره أحد البحور الخفيفة الرقيقة؛ ليتناسب ذلك مع هذه السهولة المفرطة فى الألفاظ لدرجة اللجوء إلى العامية فى التعبير عن (الأرز بالرز)، ومن ثم حرك القافية بالكسر، بما فيه من رقة وضعف؛ لينسجم مع سهولة اللفظ من جهة، وخفة البحر من جهة أخرى ، هذا فى الوقت الذى تتأجج فيه قوة العاطفة ــ بحكم ورعه وزهده ــ بضرورة التغذى بالحلال مهما كانت دونيته، من هذا المنطلق آثر كون القافية (حرف الراء) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ ليتفق مع تلك العاطفة القوية، ونظرا لهذا الكم الهائل من تلك المشاعر الإيمانية،

---

(١) الموسوعة الشعرية: ٦، وسير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٦، الجاروش: الطعام الخشن المصنوع من الحبوب التى لم ينعم دقها ــ المعجم الوجيز: ١٠١ .

آثر سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة التى أججت تلك العاطفة الدينية.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، حرص على هذا التنوع فى الأداء: تارة يلجأ إلى الجناس بين (الشعير والسعير) وتارة يلجأ إلى الأسلوب الإنشائى بصيغة الأمر فى قوله: (كل، اجعلن) وتارة يلجأ إلى الأسلوب الخبرى فى قوله : (تنج من نار السعير) وتارة يأتى بأسلوب الشرط من خلال الأمر (اجعل) الدال على معنى الجزم، وفى الجمع بين هذه الأنواع (الجاروش، الأرز، الشعير) إيحاء بمدى خشونتها ودونيتها باستثناء الأرز؛ مراعاة لجانب التغليب، ورغم ذلك تستريح النفس التقية إليها، ومن ثم عبر عنها باسم الإشارة البعيد (ذاك) إيماء إلى بعد المنزلة، وسمو المكانة لمن يقبل عليها ؛ تحريا للحلال، وبعدا عن التورط فى إثم الحرام.

ثانيا ـ أسلوب الترهيب:

لكى تثمر الدعوة الخالصة، ويكون لها أثرها الإيجابى فى القلوب، آثر الإتيان فى هذا الجانب الدينى بأسلوب الترهيب بعد الترغيب، فوجدناه يحذر من التهاون فى أمر الدين، ومن الأكل لمال اليتيم، ومن الجزع عند البلاء من الله رب العالمين، وسنعرض لذلك بشىء من التفصيل.

الترهيب من التهاون فى أمر الدين:

التهاون فى أمر الدين، شىء له مردوده السلبى على الفرد والمجتمع بمنتهى الخطر والضرر، فهو مصيبة المصائب، ومن ثم كان من دعائه (ﷺ) : "اللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا"[1] من هذا

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٨٠ .

المنطلق، ينعى (ابن المبارك) على كل دعى يجترئ على الدين، ويتهاون فى أمره ــ يقول من بحر الكامل[1]:

أأخى إن من الرجال بهيمة ∴ فى صورة الرجال السميع المبصر
فطن لكل مصيبة فى ماله ∴ وإذا يصاب بدينه لم يشعر

الشاعر هنا ثائر وغاضب على هذه النوعية التى لا تقيم للدين وزنا،ولا للقاء الله حسابا،ومن ثم آثر بحر الكامل،بثقله وامتداده،وشدة رنينه، وجعل القافية(حرف الراء) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ ليتفق كل ذلك مع تلك الدرجة الهائلة من الغضب العارم الذى يملأ جوانحه، وبما أنه ــ بحكم غيرته الدينية ــ مقهور نفسيا، ومهزوم معنويا؛ تحسرا على منهج هؤلاء ، فقد آثر التحريك للقافية بالكسر، بما فيه من ضعف؛لينسجم ذلك مع تلك الحال الآسية المسيطرة عليه.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى الأذهان، عمد إلى تلك التعبيرات الشفافة: ففى إيثاره استخدام الهمزة للنداء (أأخى)، إيحاء بمدى إشعار المخاطب بالقرب من نفسه، وفى هذا ما فيه من الاستمالة للأحاسيس والمشاعر، وهذا ــ لعمرى ــ من أجل سمات الداعية المخلص فى دعوته إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وفى خلعه صفة البهيمية على هذه النوعية من الرجال، إيماء إلى مدى الغضب الذى استولى عليه من جهة ، والاحتقار لشخصهم، والتهكم من شأنهم من جهة أخرى، وحسبهم أنهم من حيث الشكل آدميون يسمعون ويبصرون، بيد أنهم فى الحقيقة عجماوات لا يعقلون، وفى ضلالهم يعمهون، وفى إيثاره التعبير بالفطنة فى جانب المال، وانعدام المشاعر فى جانب الدين، إشارة جلية إلى تلك المفارقة العجيبة التى

---

(١) الموسوعة الشعرية: ٩، يلاحظ اضطراب الوزن فى الشطر الثانى من البيت الأول، بسبب نعته الجمع بالمفرد فى قوله: (الرجال السميع) والصواب (الرجل السميع)؛ لأن "النعت يطابق منعوته فى أربعة من عشرة، منها: العدد والنوع" شرح ابن عقيل:١٩٤/٢ .

تؤكد مدى اهتمامهم بما ينفعهم فقط، فى الوقت الذى يثبتون فيه مدى تهاونهم فى أمر الدين.

وإذا كان قد اقتصر على وصفهم بالبهيمية فى هذا المقام، ففى مقام آخر يزداد غضبه حدة وانفعالا، حين يفضح أمرهم، ويظهر مدى نفاقهم، ويكشف مدى تسترهم فى هذا الدين الذى تهاونوا فيه، ولبسوا الصوف مدعين أنهم من الزهاد الأصفياء، وهم من ذلك براء، فأنى لهم النجاة، وقد شقوا عصا الله على دين الله ــ يقول من بحر البسيط[1]:

ذر التزين فى دنياك بالدين ∴ واعمل ليوم تجازى بالموازين
ليس اللباس لباس الصوف من عمل ∴ ولا لأخذك شعرا كالمجانين
هذا اللباس مع الرهبان فى شعث ∴ فهل تراه نجاة للرهابين

فى هذا المقام زادت شدة غضبه ــ عما سبق ــ لدرجة التوتر الذى أفقده السيطرة على زفراته المتلاحقة ، وعاطفته المتأججة؛ أسى وأسفا على هؤلاء، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط؛ كى يتوافق بإيقاعاته السريعة مع تلك الزفرات المتتابعة، كما حرص على كون القافية (حرف النون) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ لينسجم ذلك مع قوة غضبه، وفى الوقت نفسه نلحظ تحريك القافية بالكسر، بما فيه من ضعف؛ ليوائم مدى قهره المعنوى، وهزيمته النفسية؛ تحسرا على هذا المنهج المشين، من قبل هؤلاء المنحرفين، وليس أدل على ذلك من سبقه القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يساعده على تفريغ تلك المشاعر الفياضة التى جاوز الغضب فيها الحد، نتيجة لتلك العاطفة المضطرمة.

أضف إلى ذلك ، هذا الحرص على زيادة الفكرة جلاء، والمعانى تقريرا وتوكيدا فى النفوس، يبدو ذلك من خلال التصريع بين شطرى البيت الأول، والطباق بين (الدنيا، الدين) ، والتنكير

(١) الموسوعة الشعرية: ١٩ .

لليوم؛ للإيحاء بمدى التعظيم، ونهاية التفخيم والتهويل من شأنه، كما نلحظ ــ أيضا ــ حرصه على تلك التعبيرات الموحية: ففى إيثاره التعبير بالأمر (ذر التزين) إيحاء بمدى التهكم بهم، والازدراء من صنيعهم، وفى قوله: (واعمل ليوم تجازى بالموازين) تهديد ووعيد لهم بمدى العقاب الأخروى الذى ينتظرهم، بسبب التجرؤ على الدين، والتهاون فى أمره، كما أن فى استخدامه أسلوب النفى (ليس اللباس) إيماء إلى مدى افتضاح أمرهم بسبب خداعهم ونفاقهم، فالدين الحق ليس بالطقوس ولا بالأشكال، وإنما بإخلاص السريرة، والصدق فى الأعمال، وليس أدل على خطورة سلوكهم المزيف المخادع، من هذا الوعيد الذى يصرح به الرسول الكريم (ﷺ): "يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من الدين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله (عزوجل): أبى يغترون، أم على يجترئون، فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانا"(١).

وفى مقام ثالث يبلغ الغاية، ويتجاوز النهاية فى حدة الغضب من شأن هؤلاء، حين يضفى ــ هذه المرة ــ على التهكم بهم طابع السخرية منهم وممن يقودهم، فيصوره بالأعمى الذى يقود عميانا مثله(٢)؛ لأنهم جميعا قد تجرءوا على هذا الدين: فالعدل أضحى فى خبر كان ، والجور تشكل بكل الألوان، ودعاة الحق فقدوا الأعوان ــ يقول من بحر البسيط(٣):

---

(١) صحيح الإمام الترمذى: ٩/ ٢٤٧ ــ يختلون الدنيا بالدين: يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويخدعون أتباعهم بزيفهم ونفاقهم ــ بتصرف ــ المعجم الوجيز: ١٨٥، لسان العرب: ٢/ ١١٠٠ .

(٢) المراد عمى البصائر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ سورة الحج ــ من الآية:٤٦ .

(٣) الموسوعة الشعرية: ١٩ .

حتى متى لا ترى عدلا تسر به ∴ ولا ترى لدعاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائلين به ∴ إذا تلون أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداء لا دواء له ∴ وقائد القوم أعمى قاد عميانا

إذا كان الشاعر قد حرص ــ فى حالتى الغضب فى المقــامين السابقين ــ على التحريك للقافية بالكسر؛ كى يتفق بما فيه من ضعف مع حاله الآسية؛ تحسرا وأسفا على هؤلاء ــ ففى هذا المقام تــزداد حدة الغضب المفرط الذى بلغ الغاية، وجاوز النهاية، ومن ثم حالفــه التوفيق فى هذين الأمرين: تحريكه للقافية بالفتح، وما يتصف به من الاستعلاء؛ ليتفق ذلك مع حدة غضبه، وبالغ حزنه، وحصــره لتلــك القافية بين (ألفى مد): الأول؛ كى يمنحه الفرصــة ويســاعده علــى تفريغ تلك الشحنة الهائلة من الغضب والأسى، والثانى حين تتجلــى براعته فى إحساسه بأن كل هذا الإبداع لا يفى بــالغرض كمــا أراد، فأتبعها بحرف الألف الذى يفيد الإطلاق والإشباع؛ حتى يظل صــدى مشاعره المكلومة موصولا، ودوى عاطفته المضطرمة مستمرا؛ كى يطرق سمع الأجيال فى كل مكان، فيشاركونه أحاسيسه ويقاســمونه مشاعره وعاطفته.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، حرص على الجناس الناقص بين (أعوانا، ألوانا) والطباق بين (العدل والجور) وكذلك بين (الــداء والدواء)، وفى التكرير للنفى (لا ترى) إيماء إلى مدى التوكيد علــى درجة اليأس التى تسربت إلى نفسه بسبب هذا التجرؤ على الــدين، وها هو ذا يعضد ذلك بقوله: (حتى متى) للإيحاء بأن هذا التمادى فى الباطل، والاستمرار فى شق عصا الطاعة على الله، يكــاد يكــون لا نهاية له، وليس أدل على ذلك من وصفه للداء بأنه (لا دواء له) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يشبههم ومن يقودهم بالعميان، ساخرا ومتهكما بهم مرة أخرى؛ للإيماء إلى مدى الضلال الــذى يتخبطــون فيه، بسبب شناعة الجرم الذى ارتكبوه.

الترهيب من أكل مال اليتيم:

إذا كان الشرع الحكيم قد حثنا على الرحمة باليتيم، والتعامل معه بالرفق واللين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[1]، كما بين ثمرة هذا الرفق بقوله (ﷺ) : "أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما"[2]، وفى الوقت نفسه حذرنا من القسوة على اليتيم، وبين عاقبة من جار عليه، واستبد به الطمع فى ماله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[3]، إذا كان الأمر كذلك، فابن المبارك (ﷺ) كان ــ بحكم تدينه وورعه ــ شديد الرفق بهذا اليتيم، ومن ثم نلحظه يستخدم أسلوب التقريع والزجر والتهديد لهؤلاء الذين يأكلون هذه الأموال ، وما ينتظرهم من سوء المآل، ها هو ذا يخاطبهم قائلا من بحر الخفيف[4]:

يا عدول البلاد أنتم ذئاب ∴ سترتكم عن العيوب الثياب
غير أن الذئاب تصطاد وحشا ∴ ومباآتها القفار اليباب
ويصيد العدول مال اليتامى ∴ باقتناص كما يصيد العقاب
عمروا موضع التصنع منهم ∴ ومحل الإخلاص منهم خراب

نلحظ أن فى إيثاره الوصف لهم بصيغة المبالغة (عدول) إيماء إلى مدى مغالاتهم فى الجرم الذى ارتكبوه فى حق هؤلاء الضعفاء،

---

(١) سورة الضحى: ٩ .
(٢) رياض الصالحين: ٦١ .
(٣) سورة النساء: ١٠ .
(٤) الموسوعة الشعرية: ١ ــ العدول: الذى مال عن الطريق وحاد عن الجادة، والمباءة: المنزل الذى يئوب إليه كلما غادره، اليباب: الخراب، العقاب: من كواسر الطير، قوى المخالب مسرول، له منقار قصير أعقف، يضرب به المثل فى حدة البصر، تقول العرب: (أبصر من عقاب ملاع)، والملاع: اسم هضبة، وقيل: اسم للصحراء؛ لأن عقاب الصحراء يفوق عقاب الجبال فى السرعة وحدة البصر ــ المعجم الوجيز: ٦٦، ٤٠٩، ٤٢٦، ٦٨٤، مجمع الأمثال: ١/ ٢٠٢ ــ رقم: ٥٧٧ .

وفى إضافته تلك الصفة إلى البلاد، إشارة إلى مدى انتشار جـورهم فى البلاد كافة دون اقتصاره على بلد واحد، وقد حرص الشاعر على ترسيخ فكرته فى النفوس والقلوب من خلال اللجوء إلى التقفية فـى البيت الأول، والطباق بـين (العمـار والخـراب) وبـين (التصـنع والإخلاص)، وكذلك التنوع فى التشبيه: تارة يشبههم بالذئاب، إشارة إلى مدى قسوتهم ووحشيتهم التى فاقت الحد، حين تجردوا من كـل معانى الرحمة إزاء هؤلاء الأبرياء، وتارة يشـببهم بالعقـاب الـذى يضرب به المثل فى حدة البصر، إيماء إلى مدى يقظـتهم، ونهايـة تحفزهم حال الانقضاض والظفر بأموال هؤلاء الضعفاء.

لهذا كله، كانت تلك الثورة من الغضب العـارم الـذى أضـرم مشاعره، وأجج عاطفته إزاء هؤلاء العدول، وليس أدل على ذلك من حرصه على الإيثار للقافية بحرف الباء، بما فيه من سـمات الجهـر والقوة والانفجار، كما آثر لتلك القافية حركة (الضم) وما ترمز إليـه من معانى القوة والفخامة؛ ليتواءم ذلك كله مع حجم هـذه الثـورة الانفعالية فى نفسه، ليس هذا فحسب، بل حرص على سبق القافيـة بحرف الإشباع (الألف)، وكأنه استشعر أنه كل ما سبق غير كاف فى الإفصاح عن عمق هذه التجربة التى عاناها، فأتى بالألف؛ كى تمنحه فسحة من الزمن يفرغ فيها تلك الشحنة الملتهبة من الآهات، تعبيرا عن حال نفسه التى تذوب حسرات .

الترهيب من الجزع عند البلاء:

لقد حذر (ﷺ) من الأمور التى تتنافى مع نعمة التسليم بالقضاء، وأبرزها الجزع عند نزول البلاء، ولاسيما إن كان ذلك من النساء ــ يقول من بحر الكامل[1]:

كيف القرار وكيف يهدى مسلم ∴ والمسلمات مع العدو المعتدى
الضاربات خدودهن برنة ∴ الداعيات نبيهن محمد

رغم تمتع الشاعر بقوة الإيمان، وتوهج العاطفة؛ غيرة على هذا الدين، إلا أنه شديد الحزن والهم؛ تحسرا وتأسفا على هذا السلوك المشين، من ثم كان الإيثار لبحر الكامل، بامتداده وثقله وشدة جرسه، ولكون القافية (حرف الدال) بصفته أحد الأصوات الانفجارية الشديدة المجهورة؛ ليتناسب كل ذلك مع هذه الدرجة من القوة الإيمانية، والعاطفة الحماسية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلحظه يؤثر القافية بالكسر، وما فيه من الإيحاء بالضعف؛ لينسجم ذلك مع نفسيته الآسية؛ حزنا على هؤلاء، ولشدة حرصه على تبليغ دعوته الصادقة إلى كافة الأنام، أتبع القافية بحرف الإشباع (الياء)؛ كى يستمر دوى حماسه الإيمانى موصولا، حتى يتجاوب معه كل من يسمع؛ تأثرا بمشاعره، وتعاطفا مع دعوته.

ولكى يحقق لهذه الفكرة كل الجلاء والتوكيد فى الأذهان، حرص على الطباق بين (المسلم والمسلمات) وكذلك الإيثار لتلك التعبيرات الموحية: ففى التعريف (للعدو) إيحاء بمدى جلاء وتحقق عداوة الشيطان لبنى البشر أجمعين ، وحسبه أنه يجرى منهم مجرى الدم فى الشرايين، وفى التنكير (للرنة) إيحاء بمدى التفخيم والتهويل

(١) الموسوعة الشعرية: ٤، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٨ ، يلاحظ تورطه فى عيب (الإصراف) بسبب اختلاف حركة القافية فى البيت الثانى عن الأول؛ لأن كلمة محمد (عليه الصلاة والسلام) بدل من (النبى) المنصوبة على المفعولية قبلها، وكان باستطاعته الخروج من هذا المأزق لو قال: ..... لراعهن محمد .

من شأنها ، نتيجة سخطه الشديد على الآثمين بفعلها، كما نلحظ أن التكرير لقوله: كيف القرار وكيف يهدى مسلم، فيه إيماء إلى مدى تعجبه، ونهاية دهشته من أمور بعض النساء عند البلاء مثل النواح، ولطم الخدود ونحوهما، وهى ــ بلا ريب ــ أمور نهى عنها الشرع الحكيم، ولا يقرها الإسلام العظيم، والمراد بالعدو المعتدى: الشيطان الرجيم ، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1]، وفى هذا ما فيه من الترهيب لهن؛ لأنهن بهذه السلوكيات الجاهلية فى معية الشيطان، ولسن فى معية الرحمن، وفى قوله: الضاربات خدودهن .. إلخ، شروع فى بيان بعض هذه السلوكيات، وفى هذا إمعان فى الترهيب لهن أيضا؛ لخروجهن بذلك عن تعاليم الإسلام التى وضحها الرسول الكريم (ﷺ) بقوله: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"[2] ، وكما عودنا (ابن المبارك) لا يثير مشكلة إلا وقد وضع لها الحل الأمثل والعلاج الناجع، ألا وهو الصبر فى هذا المقام، وقد رغب الشرع فيه ببيان أجره العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3] وقال الإمام على (كرم الله وجهه) : إن "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد"[4] ويؤكد الرسول الكريم (ﷺ) مدى هذه المنزلة، بقوله جوابا عن سؤال: "ما الإيمان يا رسول الله؟ قال: الصبر فهو كنز من كنوز الجنة"[5]، والمراد: معظم الصبر، على غرار قوله (ﷺ)

(١) سورة فاطر: ٦ .
(٢) صحيح الإمام الترمذى: ١٠/ ٤٦٦ .
(٣) سورة الزمر ــ من الآية : ١٠ .
(٤) إحياء علوم الدين : ٤/ ٦٢ .
(٥) المصدر نفسه: ٤/ ٦١ .

: الحج عرفة، وإذا ما أتينا إلى (ابن المبارك) نجده يشير إلى ثمرة الصبر وبيان فضله بقوله من بحر الرمل[1]:

غاية الصبر لذيذ طعمها ∴ وردئ الذوق منه كالصبر
إن في الصبر لفضلا بينا ∴ فاحمل النفس عليه تصطبر

بما أن المقام مقام الجزع عند البلاء ، والتأكيد على دواء الصبر، فهذا يستدعى الرقة فى الألفاظ، والسهولة فى الأسلوب، والوضوح للمعانى، ومن ثم كان الإيثار لبحر الرمل، بخفته ورقته؛ ليتفق مع ذلك كله، ونظرا لعمق التجربة، وقوة العاطفة الإيمانية فى تشخيص الداء بهذا الدواء، جاءت القافية (بحرف الراء) وما يتصف به من جهر وشدة ؛ لينسجم ذلك مع تلك القوة الإيمانية، وإذا كان الصبر هو العلاج الوحيد للجزع فى هذا المقام ، فالقضية محسومة بلا نزاع أو جدال، ومن ثم آثر الإتيان بالقافية مقيدة؛ إيحاء بالجزم والقطع اللذين يتفقان وهذا الحسم ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء، والمعانى وضوحا وتقريرا: تارة يلجأ إلى أسلوب التكرير لمادة (الصبر) أربع مرات؛ إيماء إلى مدى أهميته فى هذا المقام، وأنه لا غنى عنه فى جميع الأحوال، وتارة يلجأ إلى تلك التعبيرات الموحية: ففى إسناده اللذة إلى الطعم : إيماء إلى النتيجة والثمرة المرجوة للصبر، وهى الشعور فى عاقبته بالحلاوة الإيمانية، والمتعة الروحية التى لا تعدلها متعة، وها هو ذا يقرر ذلك بأكثر من مؤكد، فيقول: إن فى الصبر لفضلا بينا، وفى التعبير بقوله: تصطبر، إشارة إلى تكلف الصبر ــ تقول العرب: "تصبر واصطبر: جعل له صبرا"[2]، ولا ريب أن فى إيثاره التعبير بتلك الصيغة الافتعالية فى هذا المقام، إشارة جلية إلى نصيحة إيمانية ، وهى: أن من يتكلف الصبر ويحاول الظهور به، فإن الله لن يضن عليه بمنحه

(١) الموسوعة الشعرية: ٩ ٠
(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٣٩٢ ٠

هذه النعمة، لقوله (ﷺ): "من يتصبر يصبره الله"[1]، ومن رحمته سبحانه أن جعل هذا النوع من أفضل الصبر؛ لما فيه من المشقة على صاحبه ــ يقول الفاروق عمر: "أفضل الصبر التصبر"[2].

هكذا كان حال (ابن المبارك) هذا الزاهد الحق الذى أفصح من خلال ما سبق عن مدى ورعه وتدينه من خلال الترغيب والترهيب: الترغيب فى تقوى الله، وفى طلب العلم، وفى التحرى للرزق الحلال، والترهيب من التهاون فى أمر الدين، والأكل لمال اليتيم، والجزع عند البلاء من الله رب العالمين، إذا كان الأمر كذلك، فإن هذا التدين لن يكتمل، ولن يجنى صاحبه ثماره، إلا بعظيم أخلاقه، ونبل سماته، على أن يتحقق ذلك فى شخصه أولا، ثم فى دعوته الخالصة إلى الله ثانيا، ذلك ما يفصح عنه المبحث الثالث من تلك الدراسة.

(١) رياض الصالحين: ١٥ .
(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٣٩٢ .

المبحث الثالث
الاتجاه الأخلاقى فى شعره

لكى يحقق هذا الاتجاه ثماره اليانعة، ونتائجه الطيبة، حرص (ابن المبارك) فيه على اتباع نفس المنهج الذى سلكه فى الاتجاه السابق، وذلك من خلال أسلوب الترغيب والترهيب كما يلى:

أولا ـ أسلوب الترغيب:

كان (ﷺ) شديد الحرص على الترغيب فى ضرورة التحلى بحسن الخلق مع الآخرين، ها هو ذا يدعو إلى ذلك بقوله من بحر الرمل[1]:

خالق الناس بخلق حسن ∴ لا تكن كلبا على الناس تهر
والقهم منك ببشر ثم كن ∴ للذى تسمع منهم مغتفر

بالنظر فى البيتين نلحظ اللجوء إلى بحر الرمل، بطبيعته الخفيفة الرقيقة التى تتفق مع وضوح الفكرة، وسهولة اللفظ ، وجلاء المعنى، بيد أنه آثر كون القافية (بحرف الراء) بما فيه من صفات الجهر والشدة؛ لينسجم ذلك مع عمق التجربة، وقوة العاطفة الإيمانية فى الدعوة إلى ضرورة التحلى ــ بوجه عام ــ بحسن الخلق مع جميع الأنام، وإذا كانت الدعوة إلى حسن الخلق لا يختلف عليها عاقلان، ففى هذا إيحاء بالحسم دون أدنى تردد فى ذلك، ومن ثم كان الإيثار للقافية المقيدة؛ إيماء إلى الجزم والقطع اللذين يتفقان وهذا الحسم.

ولكى يزيد الفكرة جلاء، والمعانى تقريرا فى الأذهان، وجذبا وتشويقا للأسماع، حرص على هذا التنوع فى الأداء: تارة بالأسلوب الإنشائى فى قوله: (خالق الناس، لا تكن كلبا، القهم ببشر، كن مغتفرا) وتارة بالتنكير لكل من (الخلق، الكلب) وفى هذا إيماء إلى التعظيم فى الأولى، والتهكم فى الثانية، وتارة بأسلوب التشبيه فى

(١) الموسوعة الشعرية: ٨ .

قوله: (لا تكن كلبا) وفى هذا تصريح جلى بمدى السخرية من صاحب الخلق السىء، ومدى انحطاط منزلته فى قلوب الأنام.

أولى به عندئذ أن يكون فى عداد العجماوات اللئام، وإلا فالناس هم أول من يصدرون عليه سىء الأحكام، وها هو ذا يعضد هذا الاختصاص بأسلوب القصر بطريق التقديم فى قوله: (على الناس تهر)، وفى الجمع بين (البشر والمغفرة) تقرير وتوكيد للدعوة إلى ضرورة التحلى بهاتين الصفتين كلون من الخلق العظيم الذى دعا إليه القرآن الكريم، وتخلق به الرسول الكريم (ﷺ).

إذا كان الأمر كذلك فقد سار ابن المبارك (رحمه الله) على نفس النهج والتزم به، ودعا إليه، مستعرضا وموضحا بعض المظاهر التى يتجلى فيها حسن الخلق، ففى التمسك بها سعادة للمرء فى دنياه وفى أخراه، وسنعرض لها بشىء من التفصيل على النحو التالى.

الترغيب فى العفو:

مما لا ريب فيه، أن الإسلام العظيم رغب فى هذا الخلق الكريم، وجعله من سمات المتقين الذين وعدهم بالأجر العظيم، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، وإذا كان العفو عن الهفوات، والصفح عن الزلات، واجبا فى كل الأحوال، ففى حال السفر أوجب بلا جدال؛ لأنه يكشف عن أخلاق الرجال، تقول العرب: "سفر الأمر سفورا إذا وضح وانكشف، وسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، ومن ثم، ما سمى السفر سفرا إلا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم، فيظهر ما كان خافيا منها"[2].

وإذا ما أتينا إلى (ابن المبارك) نجده يدعو إلى ذلك مرشدا وناصحا رفيق السفر بقوله من بحر الوافر[3]:

---

(١) سورة آل عمران ــ من الآية: ١٣٤ .
(٢) لسان العرب : ٣/ ٢٠٢٤، المعجم الوجيز: ٣١٢ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ١٤ .

إذا صاحبت فى الأسفار قوما ∴ فكن لهم كذى الرحم الشفيق
بعيب النفس ذا بصر وعلم ∴ عمى القلب عن عيب الرفيق
ولا تأخذ بعثرة كل قوم ∴ ولكن قل هلم إلى الطريق
فإن تأخذ بهفوتهم تمل ∴ وتبقى فى الزمان بلا صديق

لقد كشف الشاعر فى هذه المقطوعة عن ضرورة حسن التعامل مع رفقاء السفر بالود واللطف، والبصر بعيوب النفس ، والتغاضى عن زلاتهم، ونظرا لوفرة هذه المعانى، آثر بحر الوافر الذى ينسجم معها بوفرة ما فيه من حركات وسكنات، كما نلحظ مدى درجة الحماس فى الترغيب فى خلق العفو من خلال تلك العاطفة الإيمانية القوية، ومن ثم كان الإيثار للقافية (بحرف القاف) بصفته أحد الأصوات الشديدة الانفجارية؛ ليتفق مع هذه الدرجة القوية من الحماس والعاطفة، ومما يعضد ذلك حرصه على سبق القافية بحرف المد (الياء) ؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة الحماسية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلحظ مدى براعته فى التحريك للقافية بالكسر، وما فيه من الإيحاء بالضعف؛ لينسجم ذلك مع انكسار حاله، وقهر معنوياته حين يسىء المسافر للرفقاء، وما أتعسه حين يبقى فى الزمان بلا أصدقاء.

أضف إلى ذلك مدى حرص الشاعر على تعميق فكرته، ومدى توضيحها وتقريرها فى النفوس والأذهان ، وذلك من خلال اللجوء إلى الجناس الناقص بين (الشفيق والرفيق)، كما أن فى التشبيه للرفيق بذى الرحم، إيماء إلى ضرورة تحليه بالرفق والأناة فى معالجة الأمور التى قد يكشف عنها السفر، وهى كثر، وفى الطباق بين (عيب النفس وعيب الرفيق) وكذلك بين (البصر والعمى) إيماء إلى ضرورة تنبه هذا الرفيق إلى عقد المقارنة دائما بين عيوب نفسه وعيوب الآخرين، بأن يكون ذا بصر بالأولى، ومتغافلا عن الثانية؛ حتى يسلم من الأخطاء ، ويسود بينه وبين الرفاق الود والصفاء،

وإذا ما نظرنا إلى المقابلة بين شطرى البيت الثالث، لحظنا إشارة جلية إلى ضرورة تركيز الرفيق على الهدف المنشود حال السفر، وإلا تسبب فى وجود الكثير من الضرر، وها هو ذا يؤكد ذلك بلفظ العموم (كل) ليشير إلى ضرورة التحلى بذلك فى جميع السفرات، وفى سائر الأحوال والتصرفات، أما فى التعبير بقوله: (وتبقى فى الزمان بلا صديق) ففيه ما فيه من التحذير والتهديد لكل رفيق من الوقوف أمام الصغائر والزلات، بل عليه ضرورة التغاضى عن الهفوات، وإلا تخلى عنه الأصدقاء فى الخلوات وفى الجلوات.

الترغيب فى مصاحبة الصالحين:

كما رغبنا (ﷺ) فى العفو عن الزلات، والصفح عن الهفوات، رغبنا كذلك فى مصاحبة الصالحين الفضلاء، الذين يتحلون بعظيم السمات ، يقول من الرمل المجزوء[1]:

وإذا صاحبت فاصحب فاضلا ∴ ذا عفاف وحياء وكرم
قوله للشىء لا إن قلت لا ∴ وإذا قلت نعم قال نعم

لقد آثر الشاعر بحر الرمل وجعله مجزوءا؛ مبالغة فى التحقيق لرقته وخفته؛ ليتفق ذلك مع وضوح معانيه، وسهولة ألفاظه، ورقة أساليبه، ونظرا لعمق التجربة، وجلال الفكرة، الناتجين عن قوة الإيمان، حرص على كون القافية (حرف الميم) باعتباره أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ لينسجم ذلك مع هذا العمق، وذاك الجلال، وبما أن دعوته هذه ليست فى حاجة إلى جدال، فالقضية محسومة،ولا يختلف عليها منصفان، ومن ثم كان الإيثار لتلك القافية المقيدة؛ إيماء إلى الحزم الذى ينسجم مع هذه الدرجة من الحسم.

ولكى يزيد الفكرة جلاء، والمعانى وضوحا وتقريرا، آثر هذا التنوع فى الأسلوب، تارة بأسلوب الشرط فى قوله: (وإذا صاحبت،

(١) الموسوعة الشعرية: ١٨، شذرات الذهب: ١/ ٢٩٧، عبدالله بن المبارك: ٤٤، تهذيب الأسماء: ١/ ٢٨٥ .

وإذا قلت) وقد عبر بالماضى هنا؛ إيماء إلى تحقق وقوع كل من (الصحبة، القول) وأن كليهما بات من الأمور البدهية المقررة التى ينبغى أن تتحقق بين الأصدقاء، حتى يسود الود والصفاء، وها هو ذا يعضد ذلك بالمقابلة بين شطرى البيت الثانى؛ ليقرر مدى درجة التوافق بين الصديق وصديقه حال السلب والإيجاب، دون أدنى لوم أو عتاب، كما نلحظ أن فى الجمع بين هذه الصفات: الفضل والعفة والحياء والكرم، والتوافق فى الطباع، والتوحد فى الرأى، إشارة إلى مدى إيمان هؤلاء الصالحين ، ومن ثم رغبنا (ﷺ) فى التشرف بصحبتهم حين قال: "لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقى"[١]، وإذا كان (ﷺ) قد قرر أن "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[٢] فهذه دعوة صريحة إلى ضرورة التحكيم للعقل فى التحرى عند اختيار الأصدقاء، حتى يجنى المرافق الثمار الطيبة، وإلا أصابه الضرر، فسوء الخلق يعدى كما يقولون، وحسبنا فى هذا قوله (ﷺ): "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة"[٣] .

من هذا المنطلق، أكد (ابن المبارك) ضرورة التحرى عند الاختيار، فهذا من الحكمة والوقار، ونبهنا إلى أن الصديق مرآة صديقه: إن كان صالحا، أعانه على طاعة رب العالمين، وإلا كان سببا فى شقائه، فابتاع الدنيا بالدين، يقول من الكامل المجزوء[٤]:

وعلى الفتى بوقاره ∴ سمة تلوح على جبينه

(١) صحيح الإمام الترمذى: ٩/ ٢٤٢ .
(٢) المصدر نفسه: ٩/ ٢٢٣ .
(٣) رياض الصالحين: ١٩٤ .
(٤) الموسوعة الشعرية: ٢١، عبدالله بن المبارك: ٤٢، الإمام الربانى: ١٧٦، حلية الأولياء: ٨/ ١٧٠، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٩ .

فمن الذى يخفى عليك ∴ إذا نظرت إلى قرينه
رب امرئ متيقن ∴ غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه ∴ فابتاع دنياه بدينه

لقد آثر الشاعر بحر الكامل المجزوء؛ مبالغة فى الرقة والخفة، وخص القافية (بحرف الهاء) بصفته أحد الأصوات الضعيفة المهموسة؛ ليتفق كل ذلك مع وضوح الفكرة، ورقة الأسلوب، وجلاء المعنى، ولما كان القرين مرآة لقرينه، يبرز ما له من مميزات، أو ما عليه من هنات، باتت هذه الفكرة محسومة بلا جدال، ومن ثم كان الإيثار للقافية بهاء السكت؛ إيماء إلى القطع والجزم الذى ينسجم وهذا الحسم.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، عمد إلى الطباق بين (الدنيا، الدين)، والمقابلة فى البيت الثالث بين من كانت سمته التيقن فى دقة الاختيار للصديق، وبين من غلب الشقاء على يقينه، والتفصيل بعد الإجمال فى البيتين الأخيرين، فبعد أن صرح بالشقاء، شرع فى بيان أثره الذى يتمثل فى العدول عن الرأى المكين، وإيثار الدنيا على الدين.

أضف إلى ذلك حرصه على التعبيرات الموحية: ففى قوله: (وعلى الفتى بوقاره سمة) أسلوب قصر طريقه التقديم؛ للإيحاء باختصاص الفتى بتلك السمة دون سواها، حال اقترانه بصديق يشاركه فى نفس الصفة التى تضفى عليه الهيبة والاحترام، ومن ثم كان التنكير (للسمة)؛ إيماء إلى التعظيم من شأنها، كما أن فى التعبير بالحرف (رب) إيحاء بقلة من كان متيقنا من حسن خلقه، ثم غلب الشقاء على يقينه بسبب سوء الاختيار للقرين، وفى هذا إيماء إلى ضرورة مراعاة الدقة فى الاختيار، وإلا منى المرء بسوء العاقبة والبوار.

الترغيب فى حفظ اللسان:

إذا كانت قيمة المرء بين الأنام تتمثل فى "أصغريه حجما: قلبه ولسانه"[١]، فهذا يؤكد لنا مدى أهمية اللسان وخطورته، لذا ينبغى أن يطول صمته ، لقول العرب: "ما على الأرض شىء أحق بطول سجن من لسان"[٢].

من هذا المنطلق، كانت تلك الدعوة الصريحة، من قبل (ابن المبارك) إلى ضرورة التمسك بمكارم الأخلاق بعامة، وشدة الحرص على الكلم الطيب، وحفظ اللسان من الزلل بخاصة، فرب كلمة تودى بصاحبها إلى البوار، فيكون مصيره جهنم وبئس القرار ــ يقول من بحر المتقارب[٣]:

احفظ لسانك إن اللسان ∴ حريص على المرء فى قتله
وإن اللسان بريد الفؤاد ∴ دليل الرجال على عقله

لقد آثر الشاعر بحر المتقارب، بصفته أحد البحور الرقيقة الخفيفة، وخص القافية (بحرف الهاء) بما فيه من همس وضعف؛ ليتناسب ذلك مع رقة اللفظ ، وجلاء المعنى، ووضوح الفكرة، ولما كانت خطورة اللسان متحققة إن لم يحفظه صاحبه، بات ذلك أمرا محسوما، ومن ثم كان الإيثار للقافية بهاء السكت؛ إيماء إلى الجزم والقطع الذى ينسجم مع هذا الحسم .

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتوكيدا فى الأذهان، عمد إلى هذا التنوع فى الأداء: تارة يلجأ إلى تكرير لفظ (اللسان)؛ إيماء إلى مدى خطورته، وأنه أولى الأعضاء بالاهتمام من الإنسان؛ حفاظا على سلامته، وتارة يلجأ إلى الأسلوب نفسه، لكن بصيغة التوكيد (إن اللسان)؛ ليقرر ويعمق فى ذهن المتلقى مدى خطورة هذا العضو، وبالغ أثره عليه إن أهمل حفظه، وتارة يلجأ إلى تلك التعبيرات

(١) نكت الأمثال : ٤٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٤ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ١٦، الورقة: ١٧، عبدالله بن المبارك: ٤١ .

الموحية: ففى التعبير بالأمر (احفظ) إيماء إلى الحث والتحضيض على ضرورة حفظ اللسان؛ حتى يأمن المرء شر العدوان، وفى إسناده الحرص إلى هذا العضو، أسلوب تشخيص، فيه إشارة جلية إلى مدى خطورته التى بلغت حد التعمد فى هلاك صاحبه إن لم يعقله، وليس أدل على خطورته، من جعله بريدا للفؤاد، ودليلا للعقل، وفى هذا بيان إلى كون اللسان، هو العضو الوحيد الذى يترجم عن مكنون الجنان، ويفصح عما يخفيه الإنسان.

وإذا كان الرسول (ﷺ) قد حسم القضية بخصوص هذا العضو، وأرشدنا إلى العلاج الناجع بقوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"(١)، فقد تنبه (ابن المبارك) إلى هذا ونصحنا بقوله من بحر الخفيف(٢):

وإذا ما هممت بالمنطق البا ∴ طل فاجعل مكانه تسبيحا
إن بعض السكوت خير من النطـ ∴ ـق وإن كنت بالكلام فصيحا

ما زال الشاعر مصرا على جلاء المعنى، ورقة اللفظ، وسهولة الأسلوب، ومن ثم كان الإيثار لبحر الخفيف، بما فيه من رقة وخفة، واختصاص القافية (بحرف الحاء) بصفته أحد الأصوات الضعيفة المهموسة؛ ليتناسب كل ذلك مع تلك الرقة والسهولة .

وبما أن المقام مقام النصح والتشخيص للداء بالدواء، فهذا يعنى عمق التجربة، وسمو الفكرة، وقوة العاطفة، ومن ثم كان التحريك للقافية بالفتح وما فيه من معنى الاستعلاء؛ ليتفق ذلك مع هذا العمق، وذاك السمو، ومما يعضد ذلك حرصه على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة العاطفية

(١) رياض الصالحين : ٣٢٨ .
(٢) الموسوعة الشعرية: ٣ ، طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٢٨٦، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

القوية، ولم يكتف بهذا، بل أتبع القافية بألف الإطلاق؛ كى يظل صدى عاطفته مستمرا ومتصلا حتى تعم النصيحة كل الأرجاء.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، عمد إلى الطباق بين (المنطق الباطل والتسبيح) وبين (السكوت والنطق) وفى اختصاصه السكوت بالبعضية، إيحاء إلى الإشادة بفضيلته والترغيب فيه حتى وإن كان قليلا.

وها هو ذا يؤكد ذلك فى مقام آخر، منوها بفضيلة الصمت؛ فهو زينة العقلاء، وعصمتهم من التورط فى الأخطاء ــ يقول من بحر الطويل[1]:

صموت إذا ما الصمت زين أهله ∴ وقتاق أبكار الكلام المختم

نظرا لجلال فضيلة الصمت، ومدى سمو شأن صاحبه، آثر الشاعر بحر الطويل، بصفته أحد البحور الثقيلة القوية فى جرسها ، الشديدة فى رنينها، كما حرص على كون القافية (حرف الميم) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ ليتفق كل ذلك مع هذا السمو والجلال، هذا فى الوقت الذى يتألم فيه الشاعر وجدانيا؛ حسرة وأسفا على من يهمل فضيلة الصمت ولا يقيم لها وزنا فى حياته، ومن ثم كان الإيثار لتحريك القافية بالكسر؛ إيماء إلى هذا الانكسار النفسى تجاه هذا النوع من الأنام.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى النفوس، عمد إلى تلك التعبيرات الشفافة: ففى وصفه الصمت بالزينة، إيحاء بسمو منزلته، ومدى الجمال الذى يضفيه على من اتصف به، وفى التعبير بصيغتى المبالغة (صموت، فتاق) إشارة إلى أن العاقل الأريب، والفطن اللبيب، هو الذى يبالغ فى صمته بدرجة تفوق منطقه؛ لإدراكه جيدا أن الله خلق لنا أذنين وفما واحدا، فليكن المرء حريصا على الإنصات، أكثر

(١) الموسوعة الشعرية: ١٦ .

من حرصه على النطق بالكلمات، ولا غرو! "فالصمت يكسب أهله المحبة، بل ربما كان جوابا فى كثير من الأحيان، وإذا ندم المرء على ذلك، فالندم على الصمت خير من الندم على الكلام"(١).

ثانيا ـ أسلوب الترهيب:

كما رغبنا الشاعر فى بعض الصفات المحمودة التى ينبغى أن يتحلى بها المؤمن، من الخلق الحسن، والعفو عن المسيئين ، والمرافقة للصالحين، وحفظ اللسان من القول المشين، شرع فى الترهيب من بعض الصفات المذمومة التى ينبغى أن ينأى عنها المؤمن ذو الإيمان المكين؛ لما فى التخلق بها من الهلاك المبين، وسنعرض لذلك بشىء من التفصيل.

الترهيب من النفاق:

حين نطالع الشرع الحكيم، نجد أن القرآن الكريم ذم المنافقين، وبين سوء المصير الذى ينتظرهم يوم الحساب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾(٢)، كما حذر الرسول الكريم (ﷺ) من هذا الصنف من البشر، فوصفهم بقوله: "شر الناس ذو الوجهين ، يأتى يوم القيامة وله وجهان من نار"(٣).

على نفس النهج من الذم والترهيب، سار ابن المبارك (رحمه الله)، ها هو ذا يفصح عن مدى غضبه تجاه هؤلاء بقوله من بحر الرجز(٤):

أعداء غيب إخوة التلاقى ∴ يا سوءتا من هذه الأخلاق

لقد آثر الشاعر بحر الرجز بخفته ورقته؛ لينسجم مع وضوح الفكرة، وسهولة اللفظ، وفى التعبير بقوله: (يا سوءتا) إيماء إلى

(١) نكت الأمثال: ٨، ٩، ١٧ بتصرف .
(٢) سورة النساء : ١٤٥ .
(٣) الترغيب والترهيب: ٣/ ٦٠٢، ٦٠٣ .
(٤) الموسوعة الشعرية: ١٤ .

مدى ثورة الغضب التى تملكته، وكأنه ــ والحال هذه ــ يجأر بأعلى صوته الذى يدوى فى الفضاء الفسيح؛ نعيا على هذا الخلق القبيح، كما استعان على توضيح فكرته وتعميقها فى النفوس، باستخدامه التصريع بين الشطرين، والطباق بين الأعداء والإخوة، وبين الغيب والتلاقى، وفى استخدامه اسم الإشارة للقريب، إمعان فى التحقير لهذا الخلق الذميم، وإفصاح عما تنطوى عليه جوانحه من الغضب العظيم، وها هو ذا يؤكد ذلك بكون القافية (حرف القاف) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة الانفجارية؛ لينسجم ذلك مع قوة غضبه، كما حرص على سبق القافية بألف المد والإشباع؛ كى تمنحه فرصة لإفراغ تلك الشحنة العارمة من الغضب المتأجج فى صدره، نخلص من هذا ، أن الشاعر يعيش حاله من القهر المعنوى، والضعف النفسى، وها هو ذا يستغل براعته فى الإيثار لحركة القافية بالكسر وما فيه من الإيحاء بالضعف؛ كى ينسجم ويتواءم ذلك كله مع هذه الحال من الانكسار، ومرارة الهزيمة التى أحاطته من جميع الأقطار.

كانت النتيجة الطبيعية لهذه الثورة من الغضب، أن يعمد ــ من خلال هذه التجربة القوية ــ إلى تهدئة نفسه، من خلال عقده تلك المقارنة بين أهل عصره الذين شاع بين بعضهم هذا الخلق الذميم، وبين السلف الصالح الذين رحلوا بإخلاصهم إلى جنات النعيم ــ يقول من بحر الكامل[1]:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ∴ والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزين بعضهم ∴ بعضا ليأخذ معور من معور
ركبوا ثنيات الطريق فأصبحوا ∴ متنكبين عن الطريق الأكبر

(١) الموسوعة الشعرية: ٩ ــ الرجل المعور: الذى ذهب بصر إحدى عينيه، الثنيات: منعطفات الطريق فى الجبل، متنكبين عن الطريق الأكبر: تجنبوه وحادوا عنه ــ المعجم الوجيز: ٨٩، ٤٤٠، ٦٣٣ .

فى ثنايا هذه التهدئة النفسية المتمثلة فى عقد هذا اللون من الموازنات بين حال السلف والخلف، ما زالت العاطفة القوية تسيطر عليه من خلال تلك التجربة العميقة، والفكرة الجليلة ، فحسب النفاق خطرا أنه الداء الدوي، ومن ثم كان الإيثار لبحر الكامل بما فيه من قوة جرس، وشدة رنين، والحرص على كون القافية (حرف الراء) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ ليتناسب كل ذلك مع عمق التجربة، وقوة العاطفة، ولما كان داء النفاق من الأمور المحسومة التى لا يختلف ــ على خطورتها ــ منصفان، فقد آثر الإتيان بالقافية مقيدة؛ إيماء إلى معنى الجزم والقطع الذى يتفق وهذا الحسم ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء، لجأ إلى تلك التعبيرات الموحية: ففى إيثاره التعبير بالفعل (ذهب) إيماء إلى مدى الحسرة ونهاية الألم الذى يعتصر نفسه؛ حزنا على رحيل السلف الصالح من هذه الحياة، كيف لا! وهم الذين اتبعوا نهج الرسول الكريم (ﷺ) المتمثل فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1]، وفى وصفهم بالرجال تأكيد لمدى حسرته عليهم من جهة، وإيحاء بسمو منزلتهم من جهة أخرى، وفى إيثاره الوصف لبعض أهل زمانه بالخلف، تبدو مدى البراعة كذلك فى دقة التعبير؛ لأنهم خالفوا منهج الشريعة الغراء، تقول العرب: "خلف الشىء خلوفا إذا تغير وفسد"[2]، كما أن فى الوصف لهم بالتزين لبعضهم، وبالتنكب عن الطريق الأكبر، افتضاحا لنفاقهم، وكشفا لسترهم، وحسبهم إثما أنهم حادوا عن طريق الرحمن، واتبعوا سبيل الشيطان٠

الترهيب من الغيبة:

(١) سورة الحشر ــ من الآية : ٧ ٠
(٢) المعجم الوجيز : ٢٠٨ ٠

من المعلوم شرعا أن الإسلام حرم الغيبة ونهانا عنها مستخدما أسلوب الوعيد والتهديد، حين شبه كل من يتحدث فى غيبة سواه بما يكره، بمن يأكل لحم أخيه ميتا، يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾(١).

وإذا كان العرب قد أكدوا أن "مقتل الرجل بين فكيه"(٢) ، فقد كان ابن المبارك (ﷺ) شديد الإدراك لمدى خطورة الغيبة، وبالنظر فى شعره لم أعثر إلا على هذا النموذج اليتيم الذى يقول فيه من بحر المنسرح(٣):

وغيبة الناس إن غيبتهم .·. حرمها ذو الجلال فى الكتب

الشاعر يعيش تجربة قوية، وفكرة جليلة، تتمثل فى بيان الحكم الشرعى للغيبة، ومن ثم كان الإيثار للقافية (بحرف الباء) بصفته أحد الأصوات الانفجارية الشديدة المجهورة؛ ليتوافق ذلك مع قوة التجربة، وجلال الفكرة، ولكى يتحقق لتلك الفكرة التأثير الإيجابى فى نفس المتلقى، آثر عرضها فى هذا الأسلوب السهل، وتلك الألفاظ الجليلة، ومن ثم آثر بحر المنسرح، باعتباره أحد البحور الخفيفة الرقيقة؛ لينسجم مع سهولة التعبير، ووضوح اللفظ، ونظرا للهم الذى ألم به، أسى وحسرة على حال من يرتكبون هذا الجرم، فقد آثر التحريك للقافية بالكسر وما فيه من الإيحاء بالضعف؛ كى يتلاءم ذلك مع انكساره النفسى، وحزنه الجدانى.

كما نلحظ مدى حرصه على جلاء وتقرير الفكرة فى ذهن المتلقى، وذلك من خلال تلك التعبيرات الموحية: ففى إضافته الغيبة إلى الناس كافة، إيماء إلى افتضاح سلوكيات بعض الأفراد الذين جعلوا الغيبة ديدنهم، حين يطلقون لأنفسهم العنان بالخوض فى

(١) سورة الحجرات ــ من الآية: ١٢ .
(٢) نكت الأمثال: ٦ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ١، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٧ .

أعراض جميع الناس بلا استثناء، دون أدنى خجل أو حياء، وفى هذا ما فيه من الإثم العظيم، والجرم الجسيم، وفى قوله: إن غيبتهم حرمها ذو الجلال، أسلوب توكيد دعمه بأكثر من مؤكد؛ ليقرر فى الأذهان مدى خطورة هذا الذنب الذى حرمه الله، وتوعد كل من اقترفه بالعقاب الأليم، كما أن فى التعبير بذى الجلال، إشارة صريحة إلى مدى عظمة الخالق سبحانه من جهة، وتفخيم العقاب الإلهى على هذا الجرم من جهة أخرى، وفى هذا ما فيه من الترهيب والتخويف، وقوله: فى الكتب، إيماء إلى الركنين الأساسيين فى التشريع وهما القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

مما لا ريب فيه أن ابن المبارك (ﷺ) كان كثيرا ما يهدى النصائح والإرشادات كعادته، مرغبا وموضحا مدى الأجر العظيم لمن عرف خطورة هذا الجرم، فرد غيبة أخيه فى مجلس تنتهك فيه حرمته، ها هو ذا يؤكد ذلك بما يرويه عن الرسول الكريم (ﷺ) : "ما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلما فى موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته"[1]، ولا غرو! فقد كان (ﷺ) قدوة فى هذا الأمر، لا يغتاب أحدا، ولا يذكر أحد إلا بخير، ها هو ذا (عبيد بن جناد)[2] يصفه بقوله: "ما رأيت مثل ابن المبارك: إذا ذكر أصحابه فخمهم، يقول: وأين مثل فلان، ثم يقول : الرفيع من يرفعه الله بطاعته، والوضيع من وضعه"[3].

الترهيب من التدليس فى القول:

(١) حلية الأولياء: ٨/ ١٨٩ .
(٢) لم أعثر له على ترجمة.
(٣) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٩ .

بالنظر فى شعره، لم أعثر كذلك إلا على هذا النموذج الفرد الذى توعد فيه كل من يحرص فى حديثه على الخبث والدهاء، مبينا حكم هذا الجرم بقوله من بحر السريع[1]:

دلس للناس أحاديثه ∴ والله لا يقبل تدليسا

لما كانت قضية التدليس من أخطر القضايا التى لا تليق بالمؤمن الحقيقى، ثار بركان عاطفته الإيمانية؛ سخطا ووعيدا لمن اتصف بذلك، من هذا المنطلق آثر الشاعر تحريك القافية بالفتح وما فيه من معنى الاستعلاء؛ لينسجم ذلك مع قوة عاطفته، وشدة سخطه، ومما يعضد ذلك حرصه على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة من الحزن والأسى، ولم يكتف بذلك، بل أتبع القافية بألف الإطلاق؛ كى يظل صدى تلك الشحنة مستمرا حتى يطرق الأسماع فى كل مكان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلحظ أنه عرض تلك الفكرة فى جلاء، متوخيا سهولة اللفظ، ووضوح المعنى، ومن ثم كان الإيثار لبحر السريع بما فيه من الرقة والخفة، ولكون القافية (حرف السين) بما فيه من ضعف وهمس؛ ليتناسب كل ذلك مع تلك السهولة، وذاك الوضوح٠

ولكى يزيد من عمق الفكرة ، ويؤكد جلاءها وترسيخها فى الأعماق، عمد إلى هذا اللون البديعى المتمثل فى رد العجز على الصدر، فضلا عن تلك التعبيرات الموحية: ففى التعبير بالفعل (دلس) دون (حدث) إيماء إلى مدى حرص هذا المتحدث على استخدامه الحيل فى ملازمة الخداع والمكر لحديثه، وفى إيثاره التعبير بصيغة الجمع للناس وللأحاديث، إشارة إلى مدى خطورة هذا النوع من البشر الذى غدا التدليس ديدنه على جميع الخلق من الأنام، وبكل ما ينطق من الكلام، كما أن فى الشطر الثانى إيماء صريحا إلى بيان

(١) الموسوعة الشعرية: ١٠، وسير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦١ ٠

حكم هذه الخصلة الذميمة، وتأكيدا لمدى حرمتها عند الله، ذلك أنه ليس أضر ولا أخطر على المرء من التدليس بقصد "الخداع والحديث بما لم يكن، والصرف عن المقصد بحيلة خبيثة"(١).

إذا بحثنا عن السبب فى جرم هذه الخصلة الذميمة، لحظنا مزجها بين المكر والكذب فى آن واحد، وفى هذا ما فيه من الخطورة لأمرين:

أولا: لأن المكر من أخس الصفات التى نعى الله بها على المشركين والكفار الذين تآمروا على رسول الله (ﷺ) بقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢)، وحسبه سبحانه أن "يدبر لهم ما يفضح أمرهم، ويبطل مكرهم؛ لأنهم جانبوا الصواب، ومكره لا يصيب إلا من يستوجب العقاب"(٣).

ثانيا: لأن الكذب يستحيل أن يتصف به المؤمن الحقيقى، يؤكد ذلك رسول الله (ﷺ) حين سئل يوما: "أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم، أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم، أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا"(٤)، ذلك أن "الكذب خضوع وداء، لكن الصدق عز وشفاء"(٥).

من هذا المنطلق، أفلح (ابن المبارك) فى تشخيص الداء، حين وفق فى وصف الدواء، ألا وهو الصدق فى جميع الأحوال بل استثناء ــ يقول من الكامل المجزوء(٦):

والصدق أجمل بالفتى ∴ فى القول عندى من يمينه

(١) المعجم الوجيز: ٢٣٢، ٥٨٧ بتصرف.
(٢) سورة الأنفال ــ من الآية: ٣٠ .
(٣) بتصرف ــ الكشاف : ٢/ ١٥٥، صفوة التفاسير: ٤/ ٥٠١ .
(٤) الترغيب والترهيب : ٣/ ٥٩٥ .
(٥) نكت الأمثال: ١٢، ١٣ بتصرف.
(٦) الموسوعة الشعرية: ٢١، عبدالله بن المبارك: ٤٢، الإمام الربانى: ١٧٦، حلية الأولياء: ٨/ ١٧٠، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٩ .

نظرا لوضوح الفكرة، وجلاء اللفظ، آثر الشاعر بحر الكامل المجزوء، وخص القافية (بحرف الهاء) بما فيه من همس وضعف؛ مبالغة فى الخفة والرقة التى تنسجم مع ذلك الوضوح للفظ والفكرة، وبما أن الصدق هو الدواء الناجع لداء الكذب، فالقضية محسومة لا ريب فى ذلك، ومن ثم آثر كون القافية (بهاء السكت)؛ إيماء إلى معنى الجزم والقطع الذى يتفق وهذا الحسم.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، عمد إلى أسلوب التفضيل الذى يفصح ــ من خلاله ــ عن مدى سمو منزلة الصدق على اليمين، وليس أدل على ذلك من الإيثار لمادة الجمال فى قوله: (أجمل)، ففيه إيماء إلى تقرير تلك المنزلة، وبيان أثرها الذى يضفى على صاحبه زينة وبهاء، وحسبه شرفا أن يكون الصدق ديدنه فى جميع أحواله وشئونه.

الترهيب من الحسد :

الحسد داء جسيم ، وخلق ذميم، ينبئ عن مدى سخط صاحبه عما قسم الله له، ومن ثم ، فهو دائم التطلع إلى ما فى يد الغير، يحسده على ما آتاه الله من فضله، "ويتمنى زوال النعمة عنه"(١)، وها هو ذا الرسول الكريم (ﷺ) يحذرنا من هذا الداء، وينهانا عنه بقوله: "إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب، وقال أيضا: لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا"(٢).

وإذا ما أتينا إلى (ابن المبارك) نجد أنه يحذر من هذا الخلق البغيض، ويؤكد مدى خطورته، بقوله من بحر البسيط(٣):

كل العداوة قد ترجى إماتتها ∴ إلا عداوة من عاداك من حسد

(١) المعجم الوجيز: ١٤٩ .
(٢) رياض الصالحين: ٢٤٠، ٢٤١ بتصرف.
(٣) الموسوعة الشعرية: ٥ .

فإن فى القلب منها عقدة عقدت ∴ وليس يفتحها راق إلى الأبد
إلا الإله فإن يرحم تحل به ∴ وإن أباه فلا ترجوه من أحد

نحن أمام تجربة عميقة، وفكرة جليلة، وعاطفة جياشة، تتلاحق فيها زفرات الشاعر؛ ترهيبا من هذا الداء، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط، باعتباره أحد البحور ذات الإيقاعات السريعة التى تنسجم مع تلك الأنفاس الحارة المتتابعة، كما حرص على كون القافية (حرف الدال) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة الانفجارية؛ ليتفق ذلك مع عمق التجربة، وجلال الفكرة، وقوة العاطفة، هذا فى الوقت الذى تذوب نفس الشاعر فيه حسرات؛ أسفا وحزنا على من يتصف بهذا الداء، من هذا المنطلق حرص على تحريك القافية بالكسر وما فيه من الإيحاء بالضعف؛ ليتواءم مع انكساره النفسى؛ نعيا على كل حسود بغيض.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى الأذهان ، وجذبا وتشويقا للأسماع، حرص على تلك التعبيرات الموحية؛ ففى إيثاره التعبير بلفظ العموم (كل) وإردافه بقوله: (قد ترجى) إيماء إلى أن جميع العداوات ــ مهما كان نوعها ــ تقل نسبة زوالها، باستثناء عداوة الحسد، فإنها تتمكن من صاحبها، وتستولى على شغاف لبه، ومن ثم يكون التخلص منها أمرا صعب المنال، وفى إيثاره التعبير بأسلوب الاستثناء الموجب فى البيت الأول، تأكيد لمدى خطورة هذا الخلق الذميم من جهة، واختصاص له من بين جميع الأخلاقيات بعدم الزوال من جهة أخرى، وفى استخدامه أسلوب التوكيد: فإن فى القلب منها عقدة عقدت، إيماء إلى مدى تغلغل وتمكن هذا الداء الوبيل من قلب صاحبه، وفى هذا ما فيه من الترهيب والتحذير، أما فى استخدامه أسلوب الاستثناء المنفى فى قوله: وليس يفتحها راق إلى الأبد إلا الإله، فهو توكيد آخر لمدى خطورة التخلق بهذا الداء العضال من ناحية، وإشارة إلى العلاج بالوقاية منه بالرقية الشرعية من ناحية

أخرى، وتتمثل فى قوله (ﷺ): "اللهم رب الناس ، مذهب البأس، اشف أنت الشافى، لا شافى إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما"[1] ، ومن ناحية ثالثة، فيه إيماء صريح إلى أن أثر هذه الرقية لن يتحقق إلا بإرادة الله سبحانه.

إثر هذا العرض، يتأكد لنا مدى ارتقاء هذا الشاعر الزاهد بهذه الدرجة السامية من التدين، والتحلى بالأخلاق الكريمة، مستخدما فى ذلك أسلوب الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى؛ كى يتحقق لدعوته الصادقة التأثير المطلوب، فى أعماق النفوس وسويداء القلوب، وإذا كان الأمر كذلك فالأحرى به أن يغلف هذه الدعوة إلى الخير باستقطابه للمشاعر، واستمالته للأحاسيس والعواطف، بما يبعث على العظة والاعتبار، ففى هذا ما فيه من الدلائل والأسرار، ذلك ما سنتعرف عليه من خلال المبحث الرابع من تلك الدراسة.

(١) رياض الصالحين: ١٥٩ .

المبحث الرابع
الاتجاه الوعظى فى شعره

بإنعام النظر فى شعره، نلحظ أنه(ﷺ) ركز فى هذا الاتجاه على ستة محاور، يلمس المتأمل فيها مدى العظة والاعتبار، الأمر الذى يزيد من قوة يقينه، وثبات إيمانه بالله سبحانه، وبيان ذلك كما يلى٠

أولا ـ العبرة من خلق الإنسان:

المتأمل فى قضية خلق الإنسان، يجد أنه يمر بثلاث مراحل، يمثل الضعف بدايتها ونهايتها، حيث طور الطفولة والشيخوخة، وتمثل القوة وسطها، حيث الفتوة والشباب، وفى ذلك عبرة لأولى الألباب، وعن هذه الأطوار الثلاثة، يشبهه (ابن المبارك) بحال الهلال، فيقول من بحر البسيط[1]:

المرء مثل هلال عند رؤيته ∴ يبدو ضئيلا نراه ثم يتسق
حتى إذا ما تراه تم أعقبه ∴ كر الجديدين نقصا ثم يمحق

بما أن المقام خاص بمراحل خلق الإنسان، فهذا يعنى عمق التجربة، وجلال الفكرة، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط، بصفته أحد البحور ذات الإيقاعات المتلاحقة التى تنسجم ــ بدورها ــ مع تلك المراحل المتتابعة، كما حرص على كون القافية (حرف القاف) باعتباره أحد الأصوات الشديدة المجهورة الانفجارية، وآثر التحريك له بالضم وما يوحى بمعنى الفخامة؛ ليتفق كل ذلك مع العمق والجلال الخاص بكل من التجربة والفكرة٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، حرص على الطباق بين (الضآلة والاتساق) وكذلك بين (التمام والنقصان) وفى تشبيه المرء بالهلال إيماء إلى اتفاق الطرفين فى أطوار الخلق، وفى هذا إيحاء

(١) الموسوعة الشعرية:١٥،سير أعلام النبلاء٨/ ٣٧١،يتسق: يستوى ويمتلئ، الجديدان: الليل والنهار،يمحق:يتناقص جرمه وضوؤه إثر انتهاء ليالى اكتماله، المعجم الوجيز: ٩٥ ، ٥٧٤، ٦٦٩ ٠

بضرورة لفت الأنظار إلى العظة والاعتبار، وفى التعبير بالجديدين مراعاة نظير؛ إذ لا يتحقق للهلال تلك الأطوار، إلا بتتابع الليل والنهار، كما نلحظ مدى دقته فى التعبير بالحرف (ثم) الذى آثره للعطف بين تلك الأطوار؛ ليشير بذلك إلى التراخى فى المدة الزمنية لكل طور على مدار الشهر كله، وبما أن الضعف يمثل جل تلك الأطوار، حيث الضآلة فى البداية، ثم النقص والمحاق فى النهاية، وهكذا الشأن فى عمر الإنسان وحياته، ففى هذا ما فيه من المواعظ والحكم، لمن يدكر ويعتبر، وذلك لأمرين:

أ - على الإنسان أن يدرك حقيقة أصله، فلا يتكبر على أحد، وليتذكر دائما أنه خلق من ماء مهين، وإن شئت فقل: من ضعف، على حد تعبير القرآن الكريم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[1]، وإذا تساءلنا عن السر فى إيثار التعبير بالضعف دون النطفة فى هذا المقام، لحظنا أن فى ذلك إيماء إلى "كثرة ضعف هذا الإنسان فى مراحل النشأة والطفولة والهرم والشيخوخة، ففى تلك المراحل كلها يكون فى غاية الضعف، فكأن الضعف هو مادة الخلق"[2] فليتعظ وليعتبر.

ب - على الإنسان أن يخفض جناحه لإخوانه ، بأن يكون هينا لينا متواضعا، فإن "من تواضع لله درجة، يرفعه الله درجة حتى يجعله فى أعلى عليين، ومن تكبر على الله درجة، يضعه الله درجة حتى يجعله فى أسفل سافلين"[3] ، وأسوتنا فى ذلك رسول الله (ﷺ)

(١) سورة الروم: ٥٤ .
(٢) صفوة التفاسير: ١٢/ ٤٨٣ بتصرف.
(٣) الترغيب والترهيب: ٣/ ٥٦٠ .

الذى أخبرنا عن نفسه قائلا: "إن الله أوحى إلى أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد"(١).

ثانيا ـ العبرة من خطورة الذنوب:

فى أسلوب إرشادى يدعو إلى العظة والاعتبار، نلحظه يلفت الأنظار إلى مدى خطورة الذنوب، مقررا أنها تميت القلوب، وتخرب العقول، ثم يضع العلاج ناصحا بضرورة أن يخالف المرء هوى نفسه الأمارة بالسوء، حتى لا يتورط فى موارد الهلكة والمخاطر ــ يقول من بحر المتقارب(٢):

رأيت الذنوب تميت القلوب ∴ ويخترم العقل إدمانها
يبيع الفتى نفسه فى رداه ∴ وأسلم للنفس عصيانها

لقد آثر الشاعر بحر المتقارب، بصفته أحد البحور الخفيفة الرقيقة؛ ليتفق ذلك مع سهولة اللفظ، وجلاء المعنى، ومن ثم حرص على كون القافية (حرف الهاء) كصوت ضعيف مهموس؛ لينسجم مع تلك السهولة وذاك الوضوح، بيد أنه نظرا لعمق التجربة، وسمو الفكرة التى تمثل مدى خطورة الذنوب على مصير الإنسان، آثر التحريك للقافية بالفتح وما يتصف به من الاستعلاء؛ ليتفق ذلك مع جلال الفكرة، وقوة التجربة، ومما يعضد ذلك، حرصه على الإتيان بهاتين الألفين: الأولى ــ ألف التأسيس؛ كى تمنحه فرصة التفريغ لتلك الشحنة الحماسية؛ بغية التبصير بالذنوب ومدى خطرها، والثانية ــ ألف الإطلاق ، حتى يظل صدى درجة الحماس مستمرا إلى أن يطرق كل الأسماع.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، عمد إلى أسلوب التجسيم فى البيت الأول الذى يشبه فيه الذنوب بشىء مادى له أثره السلبى على

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٥٥٨ .
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٨، الورقة: ١٦، العصر العباسى الأول: ٤٠٥ .

القلوب والعقول، فيفنى الأولى، ويخرب الأخرى، كما أن فى التعبير (ببيع النفس فى الردى) كناية عن مدى غفلة هذا الإنسان، ونهاية جهله بما يأخذ بيده إلى شاطئ الأمان،وإذا كان الأمر كذلك، فما أحراه بالاستجابة للنصح والاعتبار،ولعل فى هذا عظة لأولى الأبصار ٠

ثم نلحظه يؤكد هذه النصيحة فى مقام آخر، لكن بشكل مختلف، حين يشير أن للبلاء علامات : من أشدها خطرا وضررا، أن يكون المرء عبدا لهذه النفس الأمارة، والواجب عليه حينئذ، أن يتحرر من هذا النوع من العبودية المقيتة، بمعنى أنه إذا شبعت نفسه من الذنوب مرة بحكم بشريته، فليتذكر أن هناك رقيبا عليه، فيسارع بالإقلاع عنها مرات، عندئذ يكون فى عداد المتقين الذين عناهم الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] ــ يقول من بحر الكامل[2]:

ومن البلاء وللبلاء علامة ∴ ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس فى شهواتها ∴ والحر يشبع مرة ويجوع

ما أخطرها من قضية، وما أعمقها من تجربة، وما أقواها من فكرة، أن تكون عبودية الإنسان لشهواته من أخطر وأضر أنواع البلاء، من ثم كان الإيثار لبحر الكامل، بما فيه من ثقل وقوة جرس، وجعله القافية (حرف العين) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة، والتحريك له بالضم وما فيه من الإيحاء بالفخامة؛ لينسجم كل ذلك مع هذه الدرجة من الخطورة والعمق والقوة، وليس أدل على ذلك من سبقه القافية بحرف المد (الواو) ؛ كى يمنحه الفرصة لتفريغ تلك الشحنة الوعظية لمن يدكر ويعتبر ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا، عمد إلى الطباق بين (العبد والحر) وكذلك بين (الشبع والجوع)، هذا بالإضافة إلى بعض

(١) سورة الأعراف : ٢٠١ ٠
(٢) الموسوعة الشعرية : ١٢، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٩ ٠

التعبيرات الموحية: ففى التنكير (للعلامة) إيماء إلى التفخيم والتهويل من شأن هذا النوع من البلاء، وأن من سلك دروبه فقد عاين الهلاك والفناء، وليس أدل على ذلك من تلك النصيحة التى تكمن فى التنكير أيضا (للمرة) ففيه إيماء إلى ضرورة التقليل من اقتراف الذنوب، وبيان أن هذا من سمات الأحرار، كما أن فى الجمع بين العبودية والحرية فى البيت الثانى أسلوب موازنة، يوضح فيه مدى المفارقة التى تبرز حقيقة النوعين: فالعبد من كان عبدا لنفسه فى الخلوات، والحر من إذا أطاعها مرة، خالفها مرات.

وفى النهاية، يؤكد مدى بشرية ابن آدم، بأنه لا يسلم من المعاصى والذنوب، إيماء إلى قوله (ﷺ) : "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[1] ــ يقول من بحر الوافر[2]:

أيضمن لى فتى ترك المعاصى ∴ وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا ∴ ولم يتجرعوا غصص المعاصى

(١) الترغيب والترهيب: ٤/ ٩١ .
(٢) الموسوعة الشعرية: ١٠ ــ الغصص: جمع غصة وهى ما اعترض فى الحلق من طعام أو شراب لم يكد يبتلعه صاحبه ــ المعجم الوجيز: ٤٥١ .

مازالت المعانى تتوافر، والعظات تتوافد على الشاعر، ومن ثم كان الإيثار لبحر الوافر؛ لوفرة حركاته وأوتاده التى تنسجم مع توافر تلك المعانى، ونظرا لسهولة اللفظ، ووضوح الفكرة، حرص على كون القافية (حرف الصاد) بصفته أحد الأصوات المهموسة الضعيفة، وحركه بالكسر وما فيه من الإيحاء بمعنى الضعف؛ لينسجم كل ذلك مع تلك السهولة، وذلك الوضوح، ونظرا لقوة هذه الدرجة الحماسية الإيمانية؛ رغبة فى العظة والاعتبار، حرص على سبق القافية بحرف المد (الألف)؛ كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة الحماسية.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وترسيخا فى الأذهان، عمد إلى التصريع بين شطرى البيت الأول، وفى التنكير (للفتى) إيماء إلى التعميم والإطلاق لقضية الذنوب التى لا يسلم منها أى إنسان حسب درجتها ونوعيتها، بيد أن الخيرية تتحقق فيمن أضرب عنها صفحا، وعاد إلى صوابه، كما عمد أيضا إلى بعض التعبيرات الشفافة: ففى استخدامه أسلوب الاستفهام (أيضمن...) نفى لترك الذنوب وفى هذا تأكيد لبشرية ابن آدم، وفى إيثاره التعبير بالراحة فى جانب الطاعة، وبالغصة فى جانب المعصية، موازنة توضح مدى أثر كل من المعصية والطاعة فى النفس، فالمعصية تورث ألما نفسيا عميقا، يحاكى ألم الغصة فى الحلق، بينما الطاعة تورث راحة فى النفس، واطمئنانا فى القلب، على حد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[1].

ثالثا ـ العبرة من خشونة الفقر:

شاءت حكمة الله فى خلقه أن جعل بعضهم أغنياء، والآخر فقراء؛ لما فى هذا من الخير للجميع بلا استثناء، فهو سبحانه يعلم أن من عباده من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقره لفسد حاله، وأن

(١) سورة الرعد: ٢٨ .

منهم من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه لفسد حاله، ذلك أن الجميع خلقه، وهو وحده الأدرى بشئونهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]، وإذا كان البعض يعيب الفقر ويعده منقصة، فليأخذ العبرة والعظة من رسول الله (ﷺ) الذى كان كثيرا ما يتضرع إلى الله بهذا الدعاء: "اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة، فقالت عائشة (رضى الله عنها) : لم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا، يا عائشة، لا تردى مسكينا ولو بشق تمرة، يا عائشة، حبى المساكين وقربيهم، فإن الله يقربك يوم القيامة"[2].

وإذا ما أتينا إلى ابن المبارك (ﷺ) نلحظ أنه ــ باعتباره أحد الزهاد الأصفياء ــ ينعى على كل من يعيب الفقر بقوله من بحر السريع[3]:

يا عائب الفقر ألا تزدجر .:. عيب الغنى أكبر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله .:. على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى كى تنال الغنى .:. وليس تعصى الله كى تفتقر

رغم عمق التجربة، وسمو الفكرة التى تبرز قيمة الفقر، إلا أنه استعرض ذلك فى أسلوب جلى، ولفظ رقيق، ومن ثم آثر بحر السريع؛ ليتناسب بخفته مع تلك الرقة والسهولة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حرص على كون القافية (حرف الراء) بصفته أحد

---

(١) سورة الملك : ١٤ .
(٢) الترغيب والترهيب: ٤/ ١٤١، ١٤٢ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ٨، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٨ ، يلاحظ تورطه فى (سناد التوجيه) بسبب اختلاف حركة ما قبل الروى المقيد فى البيت الثانى عما قبله وعما بعده، وكان باستطاعته تجنب ذلك لو أتى بالبيتين الأول والثانى على هذا النحو:
يا عائب الفقر ألا تستحى .:. عيب الغنى أكبر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله .:. على الغنى إن كنت من يزدجر

الأصوات القوية المجهورة؛ لينسجم ذلك مع العمق والسمو الخاص بكل من التجربة والفكرة، وبما أن قضية التفاضل بين الفقر والغنى من القضايا الحاسمة التى لا ريب فيها، فقد آثر القافية بكونها مقيدة؛ لما فى التقييد من معنى الجزم والقطع الذى يتفق وهذا الحسم.

أضف إلى ذلك، حرصه على تلك التعبيرات الموحية: ففى قوله: ألا تزدجر ــ أسلوب استفهام أراد به التهكم والتوبيخ لكل من يعيب الفقر، وأن الأولى بذلك هو الغنى، وفى هذا عبرة لمن يعتبر، وها هو ذا يؤكد ذلك بقوله: إن صح منك النظر، فهذه دعوة صريحة إلى ضرورة التحكيم للعقل عند النظر إلى الأمور؛ للعظة والاعتبار، كما نلحظ أنه قد استعان على إبراز هذه الفكرة وتوضيحها فى الأذهان،من خلال اللجوء إلى الطباق بين الفقر والغنى، والتصريع بين تفعيلتى العروض والضرب فى البيت الأول،والمقابلة بين شطرى البيت الثالث، ولا يخفى علينا طرافة المعنى حين يرى ــ بعين الحكيم البصير ــ أن الغنى هو الأولى بالعيب دون الفقر، ثم يعلل ذلك بحكمة لطيفة، وهى أن المرء قد يعصى الله من أجل أن يكون من الأغنياء، لكنه لا يعصاه حتى يكون من الفقراء، ألا يليق بكل امرئ أن يعى ذلك بكل اعتبار، حتى يكون من ذوى الأبصار!.

وفى مقام آخر يزيد الفكرة توضيحا وتقريرا حين يلفت الأنظار، ويجذب الأذهان إلى مدى أهمية الفقير عند ربه،وما ينتظره من مستقبل مشرق بالنعيم المقيم فى جنات النعيم ــ يقول من بحر الطويل[1]:

ألا رب ذى طمرين فى منزل غدا ∴ زرابيه مبثوثة ونمارقه
قد اطردت أنواره حول قصره ∴ وأشرق والتفت عليه حدائقه

(١) الموسوعة الشعرية: ١٤ ــ طمرين: ثوبين خلقين باليين، زرابى: جمع زربية وهى ما يبسط للجلوس عليه، نمارق: جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة يتكأ عليها. المعجم الوجيز:٢٨٧، ٣٩٤، ٦٣٥ .

نحن أمام تجربة قوية، وفكرة سامية، تبرز منزلة الفقير يوم الحساب، ومن أجل ذلك آثر الشاعر بحر الطويل، بصفته أحد البحور الثقيلة الممتدة، بشدة جرسه، وقوة رنينه؛ لينسجم ذلك مع هذه القوة، وذاك السمو، ولما كان النعيم الذى ينتظر الفقير فى الآخرة من الأمور المحسومة شرعا، حرص على كون القافية مقيدة؛ للإيحاء بمعنى الجزم والقطع الذى يتفق وهذا الحسم.

أضف إلى ذلك، هذا اللجوء إلى تلك التعبيرات الموحية: ففى التنكير (للمنزل) إيماء إلى التعظيم والتفخيم من شأنه؛ جزاء وفاقا على معاناة الفقير شظف العيش والصبر على لأواء الدنيا، وفى وصفه الأنوار بالاطراد، والحدائق بالالتفاف، مبالغة فى إبراز وتكثيف مظاهر النعيم التى ينعم بها الفقير فى الآخرة، كما نلحظ أن فى الجمع بين الزرابى والنمارق والقصر والأنوار والحدائق، إشارة إلى تعدد ألوان النعيم الأخروى الذى أعده الله لعباده الفقراء، وأنهم يحظون بمنزلة سامية، يغبطهم عليها الأغنياء، وفى إيثاره التعبير بالطمرين، إيماء إلى أن ميزان التفاضل بين الخلق عند الله سبحانه، ليس بظاهر الأشكال، وإنما بحقيقة القلوب والأعمال، وفى هذا ما فيه من التأكيد على منزلة الفقير عند ربه، فليعتبر أولو الأبصار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فيه إشارة إلى ما قرره الشرع الحكيم بهذا الصدد، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، ويقول الرسول الكريم (ﷺ) : "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، ورب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره"[2].

(١) سورة الحجرات ــ من الآية: ١٣ .
(٢) رياض الصالحين: ٨، ٥٩ بتصرف .

رابعا ـ العبرة من تصاريف الأيام :

من سنة الله فى خلقه، أن جعل الأيام متفاوتة فى أحداثها ما بين السراء تارة، والضراء تارة أخرى، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] وفى هذا ما فيه من العظات والعبر، فالأيام لا تزال تختبرنا بنوائبها وأحداثها، وما على المؤمن سوى الاعتبار من تصاريفها وأقدارها، وذلك بالتسليم بالإيمان إزاءها.

عن هذا التتابع لابتلاءات الأيام، ومدى التزام المؤمن نحوها بتعاليم الإسلام، يحدثنا (ابن المبارك) قائلا من بحر المتقارب[2]:

وما إن نزال على حادث ∴ يطير له القلب روعا حزينا
وما تهدأ النفس حتى أصا ∴ ب بأخرى حديد تصيب الوتينا
وإما دراكا على إثرها ∴ وقدما تكاد تهد المتونا
وفى كل يوم وفى مسية ∴ تكون النوائب بالموت فينا
وإما قريبا تراث به ∴ وإما شمالا وإما يمينا
إذا سكن الروع عن ميت ∴ بدهنا بآخر ينعى السكونا
وكيف البقاء على ما أرى ∴ ستوتين عما قليل يقينا

نلحظ حرص الشاعر على الإيثار لبحر المتقارب، بصفته أحد البحور الرقيقة الخفيفة؛ ليتناسب ذلك مع جلاء الفكرة، ووضوح المعانى، ورقة الألفاظ، ولاسيما أن المقام مقام الوعظ والإرشاد، وإذا كان الأمر كذلك فما أعمقها من تجربة، وما أجلها من فكرة، وما

---

(١) سورة آل عمران ــ من الآية: ١٤٠ .

(٢) الموسوعة الشعرية: ٢٣ ــ الروع: الفزع ، يقال: راع الأمر فلانا إذا أفزعه، الوتين: الشريان الرئيس الذى يغذى جسم الإنسان بالدم النقى الخارج من القلب، دراك: اسم فعل أمر بمعنى أدرك، والمراد: التلاحق والتتابع، المتون: جمع متن وهو الظهر، النوائب: جمع نائبة وهى ما ينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة، تراث: يصاب بالريش الذى يركب على السهم ــ المعجم الوجيز: ٢٢٦، ٢٨٢، ٢٨٣، ٥٧٢، ٦٣٨، ٦٥٩ .

يلاحظ أنه لجأ إلى (سناد الحذو) فى بيتين متتالين بين كلمتى الروى: (الوتينا ــ المتونا)، وكذلك بين كلمتى: (يمينا ــ السكونا).

أقواها من عاطفة، من أجل هذا كله، حرص على كون القافية (حرف النون) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة، وحركه بالفتح بما فيه من معانى الاستعلاء؛ لينسجم كل ذلك مع قوة العاطفة، وعمق الفكرة، ومما يعضد هذا، حرصه على حصر القافية بين حرفى مد: الأول قبلها؛ كى يمنحه الفرصة ويساعده على تفريغ تلك الشحنة القوية، نتيجة عمق التجربة، وجلال الفكرة، والثانى بعدها للإطلاق، حتى يسمح لصوت العاطفة أن ينطلق بصفة متجددة ومستمرة؛ كى يبلغ جميع الأجيال.

أضف إلى ذلك، حرصه على الإتيان بالأساليب الموحية: ففى إيثاره التعبير بتلك الكلمات مجتمعة: (نزال، دراك، يوم، مسية، شمال، يمين) إيماء إلى مدى التتابع والاستمرار لأحداث الأيام، تنوشنا بالنوائب فى جميع الأوقات والأحوال، وها هو ذا يؤكد هذا التلاحق بقوله: (حتى أصاب بأخرى، على إثرها، بدهنا بآخر)، وفى استخدامه أسلوب الطباق بين (الهدوء والروع، واليوم والمسية، والشمال واليمين، والروع والسكون) توضيح لفكرته، وتقرير لها فى ذهن المتلقى، وفى التعبير بقوله: (تراش به)، تصوير بليغ للأيام وكأنها سهم ريش بالنوائب والحدثان، وهدفها المنشود هو ذلك الإنسان، وفى إيثاره التعبير بقوله: (بدهنا)، إشارة إلى طبيعة هذه الأيام التى تنبئ عن عنصر المفاجأة فى نوائبها وأحداثها، وكما عودنا (ابن المبارك) لا يثير قضية إلا وأعقبها بالعلاج فى ضوء النصائح والإرشادات، يتمثل ذلك فى البيت الأخير الذى يقول فيه:

وكيف البقاء على ما أرى ∴ ستوتين عما قليل يقينا

فالشاعر يخاطب نفسه بهذا الاستفهام الذى أراد به التقرير بالإخبار عن رد الفعل الإيمانى إزاء أحوال الأيام، وتصاريف الزمان، ويأتى الجواب ممثلا فى ضرورة التسلح باليقين والإيمان.

خامسا ـ العبرة من المشيب:

مما لا ريب فيه، أن فى المشيب وداعا للشباب دون رجعة، وتذكرا بالنهاية المحتومة دون كلمة، وفى هذا ما فيه من العبر والعظات، لعل الغوى يقلع عن ذل المعصية فى الخلوات، ويقبل على عز الطاعة فى جميع الأوقات، هكذا يحدثنا (ابن المبارك) قائلا من بحر الخفيف[1]:

أبإذن نزلت بى يا مشيب ∴ أى عيش وقد نزلت يطيب
وكفى الشيب واعظا غير أنى ∴ آمل العيش والممات قريب
كم أنادى الشباب إذ بان منى ∴ ونداى موليا ما يجيب

لقد آثر الشاعر بحر الخفيف، بصفته أحد البحور الرقيقة؛ ليتناسب ذلك مع رقة اللفظ، ووضوح المعنى ، وبما أن المقام مقام العظة والاعتبار من فعل المشيب، فما أعمقها من تجربة، وما أسماها من فكرة، تولد عنها هذا الحماس الإيمانى الوعظى، ومن أجل ذلك حرص على كون القافية (حرف الباء) بصفته أحد الأصوات الانفجارية الشديدة المجهورة، وحركه بالضم، بما فيه من الإيحاء بالفخامة؛ لينسجم كل ذلك مع عمق التجربة، وسمو الفكرة، وقوة العاطفة، ومما يعضد هذا ، حرصه على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة الحماسية، فتهدأ نفسه، ويطمئن قلبه على تبليغ دعوته كما أراد ٠

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى النفوس، حرص على الإتيان بتلك الأساليب الشفافة ذات الظلال الموحية: ففى التعبير بقوله: (أبإذن نزلت بى)، أسلوب استفهام أريد به الإنكار، وفى هذا إيحاء بمدى الآلام، ونهاية الحسرات، من مفاجأة المشيب له دون مقدمات، وها هو ذا يؤكد هذا الإنكار، وذاك التحسر بقوله: (أى عيش وقد نزلت يطيب؟)؛ ليشير بذلك إلى سوء الأثر النفسى الذى خلفه هذا المشيب،وفى قوله: (ما يجيب) أسلوب نفى أريد به التحسر أيضا، لكن على الشباب الذى ولى من جهة،

(١) الموسوعة الشعرية: ٢، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٧ ٠

وعلى الاستحالة لعودته من جهة أخرى، وفى هذا عبرة لمن يعتبر، وفى قوله: (كفى الشيب واعظا)، إشارة إلى ضرورة أخذ العظة والاعتبار من المشيب؛ ففيه إنذار صريح بقرب النهاية، وما على العاصى سوى الإقلاع عن الغواية،وفى قوله(والممات قريب)،إيماء إلى ضرورة الإيمان بحتمية النهاية، والاستعداد للموت فى أية لحظة، كما استعان الشاعر على إبراز كل هذه المعانى، باستخدامه التصريع بين شطرى البيت الأول، والطباق بين(آمل العيش،والممات قريب،وكذلك بين المشيب والشباب)، وأسلوب التشخيص فى النداء لكل من مرحلتى المشيب والشباب على حد سواء.

سادسا ـ العبرة من الموت:

إذا كان المشيب واعظا لبنى الإنسان، فالموت أكبر واعظ فى كل زمان ومكان، نعاينه صباح مساء فى الأخلاء والإخوان، وينعى إلينا المحبون والأقربون،﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١)، وحين نأتى لابن المبارك فى استعراضه العظات والعبر من قضية الموت، نلحظ أنه ارتكز فى ذلك على الأفكار الآتية:

أ ـ العبرة من رحيل السابقين:

مما لا ريب فيه أن رحيل السابقين، وانتقالهم من دار الفناء إلى دار البقاء، سواء أكانوا صالحين أم طالحين، يحمل كل معانى العظة والاعتبار، وأننا عما قريب ــ إن يكن عاجلا أو آجلا ــ سنواجه نفس المصير الذى واجهوه، وتلك سنة الله فى خلقه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(٢).

ومن الملاحظ أنه حال استعراضه هذا المحور، آثر أن تكون له مع النفس وقفات، فيها ما فيها من العبر والعظات، تارة يعاتبها حين آثرت القسوة وعدم الاعتبار بذهاب هؤلاء الراحلين، الذين استعرض

(١) سورة يونس ــ من الآية: ٤٩ .
(٢) سورة الفتح ــ من الآية: ٢٣ .

ذكرياتهم فى شوق وحنين، لعل ذلك يبعث على الخشـــوع واللـــين ـــ يقول من بحر المتقارب[1]:

تـــذكرت أيـــام مـــن قـــد مضـــى .:. فهـــاج لى الـــدمع ســـحا هتونـــا
فـــرددت فـــى الـــنفس ذكـــراهم .:. ليحـــدث ذلـــك للقلـــب لينـــا
فقلـــت لنفســـى وعاتبتهـــا .:. وقـــد أبـــت الـــنفس أن تســـتلينا
أتنســـين آثـــار مـــن قـــد مضـــى .:. ودهـــرا تقاســـيه قـــدما خئونـــا
وقـــرع المنايـــا وإيقاعهـــا .:. وصـــوت الصـــوائح فيمـــا بلينـــا

لقد آثر الشاعر بحر المتقارب، باعتباره أحد البحور الرقيقـــة الخفيفة؛ ليتفق ذلك مع رقة اللفظ، وجلاء الفكرة ، بيد أنه نظرا لعمق التجربة، وجلال الفكرة، ولاسيما أن المقام مقام العتاب المرير لتلـــك النفس القاسية، حرص على كون القافية (حرف النون) بصفته أحـــد الأصوات الشديدة المجهورة، وحركه بالفتح بما فيـــه مـــن الإيحـــاء بمعنى الاستعلاء؛ لينسجم كل ذلك مع هذا العمق، وذاك السمو، وبما أن العاطفة قوية وجياشة، نتيجة لكل ما سبق، فقد آثر سبق القافيـــة بحرف المد؛كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة من العاطفة الحماسية تجاه هذه النفس القاسية، ليس هذا فحسب، وكأنه استشـــعر أن كـــل هذه الألوان من الإبداع الفنى لم تحقق المطلوب، فأتبع القافية بـــألف الإطلاق؛ كى يظل دوى صوته الحماسى مستمرا ومتصلا حتى يطرق سمع جميع المتلقين فى شتى البقاع.

أضف إلى ذلك، مدى حرصه علـــى الإتيـــان بتلـــك الأســـاليب الموحية: ففى إيثاره التعبير بصيغة المبالغة (هتون)، إيماء إلى مدى

---

(١) الموسوعة الشعرية: ٢٣ ـــ الدمع الهتون: الكثير القطر، المنايـــا: جمع منية وهى الموت، الصوائح: جمع صائحة وهى التى تنـــوح على المتوفى ـــ المعجم الوجيز: ٣٧٥، ٥٩٣ ، ٦٤٤ .
يلاحظ أنه لجأ إلى(البتر) حين فصل بين القول فى البيت الثالـــث، وبين مقوله فى البيت الذى يليه، فضلا عن تورطه فى(سناد الحذو) بين كلمتى الروى: (هتونا ـــ لينا) وكذلك بين (خئونا ـــ بلينا).

غزارة الدمع الذى جادت به عينه حال استعراضه ذكريات هؤلاء الراحلين، وفى هذا ما فيه من أمارات الخشوع والاعتبار برحيلهم، وها هو ذا يؤكد ذلك بقوله: (ليحدث ذلك للقلب لينا)، وفى قوله: (أتنسين آثار من قد مضى؟) أسلوب استفهام أريد به الإنكار والتوبيخ لتلك النفس التى آثرت القسوة، وأعرضت عن العظات، ولم تعتبر بقرع المنايا، ونواح الصائحات، وقد حرص الشاعر على إبراز فكرته وتقريرها فى الأذهان، من خلال استخدامه الجناس الناقص بين (لينا، بلينا)، والمقابلة بين شطرى البيت الثالث، وأسلوب التشخيص فى خطابه لها، ومعاتبته إياها فى البيتين الأخيرين ٠

وتارة أخرى يعمد إلى توضيح وتقرير ما يريد، إزاء هذه النفس اللدود، فيذكرها بنماذج لهؤلاء الراحلين، لعل ذلك يكون باعثا على تعميق الخشوع واللين ــ يقول من بحر المتقارب[1]:

وأين الملوك وأهل الحجا ∴ ومن كنت ترضين أو تحذرينا
وأين الذين بنوا قبلنا ∴ قرونا تتابع تتلو القرونا
إذا ما تذكرت أجسامهم ∴ تصاغرت النفس حتى تهونا
وكل على ذاك لاقى الردى ∴ وبادوا جميعا فهم خامدونا

الشاعر أمام تجربة عميقة، وفكرة جليلة، وعاطفة جياشة، تتمثل فى هذه الدرجة القوية من الحماس الدينى؛ تنبيها وتذكيرا لتلك النفس العنيدة التى آثرت القسوة على اللين، ولم تنثن عن التمادى فى غيها المبين، أو تعتبر برحيل تلك النماذج من السابقين، ومن ثم كان الإيثار للقافية (بحرف النون) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة، وحركه بالفتح بما فيه من معانى الاستعلاء؛ لينسجم ذلك كله مع تلك الدرجة من القسوة، نتيجة عمق التجربة، وسمو الفكرة، ومما يعضد ذلك، حرصه على سبق القافية بحرف المد؛ كى يساعده

(١) الموسوعة الشعرية: ٢٤ ، ٢٥ ــ الردى: الهلاك ، بادوا: هلكوا وانقرضوا . المعجم الوجيز: ٦٩، ٢٦١ ، يلاحظ تورطه أيضا فى (سناد الحذو) بين كلمتى: (تحذرينا ــ القرونا)٠

على منحه مساحة كافية من الزمن يفضفض فيها عن تلك العاطفة الجياشة، والمشاعر المتأججة، وكأنه استشعر أن كل ذلك الإبداع الفنى غير كاف فى الإفصاح عما أراد، فأتبع القافية بألف الإطلاق؛ كى يستمر دوى زجره لتلك النفس متصلا، حتى يبلغ جميع الأجيال فى كل زمان ومكان، هذا فى الوقت الذى نلحظ فيه سهولة العرض، ووضوح الفكرة، ومن ثم كان الإيثار لبحر المتقارب الذى يتناسب بخفته ورقته مع تلك السهولة والوضوح.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا فى الأذهان، عمد إلى تلك التعبيرات الموحية: ففى التكرير لقوله: (وأين) إيماء إلى شدة الزجر، وضرورة التذكر لهؤلاء السابقين، اللذين غادروا الدنيا بما فيها من ألوان النعيم، وصاروا إما إلى نار الجحيم، وإما إلى نعيم مقيم، وفى التصريح بذكر الملوك ، وأهل الحجا، ومن كانت النفس ترضاه أو تحذره، ومن بنوا قبلنا، إشارة إلى مدى سطوة الموت الذى لا يفرق بين القريب أو البعيد، ولا بين العدو أو الحبيب، الكل أمام القضاء سواء، وفى الوصف للنفس بالصغار والهوان، إيماء إلى مدى الخشوع الذى ينبغى أن يستولى عليها إذا ما تذكرت هؤلاء السابقين فى تذلل وخضوع، وها هو ذا يؤكد ذلك بالوصف لأحوالهم فى البيت الأخير الذى يشير فيه إلى إبادتهم جميعا حتى صاروا خامدين، فالأحرى بهذه النفس أن تعتبر وتستكين.

وتارة ثالثة يشعرنا أن هذه النفس قد استجابت لدعوته إياها للعظة والاعتبار، فانهمرت تبكى هؤلاء الراحلين بالدمع المدرار، بيد أنه سرعان ما يستنكر عليها هذا البكاء، والأولى أن تبكى على حالها

فى دار الفناء، وأن تطالع أهل القبور صباح مساء ــ يقول من بحر المتقارب(١):

أرى النـــاس يبكـــون موتـــاهم ∴ ومـــا الحـــى أبقـــى مـــن الميتينـــا
فإن كنـت تـبكين مـن قـد مضـى ∴ فبكـــى لنفســـك فـــى الهالكينـــا
وإن كنـــت بـــالعيش مغـــترة ∴ تمنيـــك نفســـك فيهـــا الظنونـــا
فنـــادى قبـــورك ثـــم انظـــرى ∴ مصـــارع أهلـــك والأقربينـــا
إلى أن صـــاروا ومـــاذا لقـــوا ∴ وكـــانوا كمثلـــك فـــى الـــدور حينـــا

رغم وضوح المعنى، ورقة اللفظ، وجلاء الفكرة الذى استدعى الإتيان ببحر المتقارب وما فيه من خفة ورقة، تنسجم مع هذه الدرجة من الوضوح والرقة، رغم هذا كله، ما زالت العاطفة القوية مسيطرة على الشاعر نتيجة عمق التجربة، وسمو الفكرة؛ فالمقام مقام الاستنكار الشديد على هذه النفس التى غفلت ــ فى غمرة البكاء على السابقين ــ عن سلسلة الدموع؛ أسى وأسفا على حالها، بسبب هذه الدرجة القوية من الاستنكار، كان الإيثار للقافية بنفس الحرف السابق، والحصر لها بين حرفى المد؛ ليتحقق نفس الهدف الذى أفصح عنه المقام السالف ذكره آنفا.

ولكى يزيد الفكرة جلاء وتقريرا وتشويقا، عمد إلى هذا التنوع فى الأداء: تارة بالتكرير لقوله: (فإن كنت) زيادة فى التقريع واللوم لهذه النفس التى تغافلت عن البكاء على حالها، وآثرت البكاء على الراحلين قبلها، وتارة بالطباق بين (الحى والميت)، وتارة بالمقابلة فى البيت الأخير، بين من كانوا فى الحياة ينعمون بالدور والقصور، ومن صاروا إلى الآخرة وقد سكنوا حضيض القبور، وفى هذا ما فيه

(١) الموسوعة الشعرية:٢٤ بتصرف، يلاحظ أنه لجأ إلى(البتر) حين فصل بين (إن) الشرطية فى البيت الثالث، وبين جوابها فى البيت الذى يليه، فضلا عن الخطأ اللغوى فى قوله: (فبكى، فنادى) والصواب الجزم لهما بحذف حرف العلة؛ لأن كلا منهما جواب للشرط،كما تورط أيضا فى(سناد الحذو)بين كلمتى(الهالكينا ــ الظنونا).

من دواعى العظة والاعتبار، وها هو ذا يؤكد ذلك بضرورة ندائها للقبور (فنادى قبورك) أسلوب تشخيص بقصد التشويق للنفوس، واليقظة للمشاعر والأحاسيس، كل هذا بغية الإدراك لتلك الحقيقة الغائبة التى أفصح عنها بهذا الإبهام (إلى أن صاروا وماذا لقوا؟) ، مبالغة فى التفخيم والتهويل لما ينتظرهم فى الدار الآخرة من المصير الذى يجابهون، وفى هذا عبرة لمن يعتبرون.

ب ـ العبرة من دفن الأحبة:

إن من أصعب اللحظات على الإنسان ، أن يودع أخاه إلى الأبد بشكل عام، وأن يراه مغيبا فى التراب بشكل خاص، ولاسيما إذا كان من الأخلاء الأعزاء ، أهل البر والتقى والنقاء ، كيف لا! وهم الذين استوحشت من بعدهم الديار، وفى ذلك ــ لا ريب ــ عبرة لأولى الأبصار، هكذا يدعونا (ابن المبارك) إلى العظة من دفن الأحبة تحت أطباق التراب، موضحا مدى تبدل الأحوال إثر طول الغياب ــ يقول من بحر المتقارب[1]:

دفنت الأحبة لم آلها ∴ أهيل عليها ترابا وطينا
وكانت تعز على أهلها ∴ وأعزز بها اليوم أيضا دفينا
لقد غيب القبر فى لحده ∴ وقارا نبيلا وبرا ودينا
وصحبى والأهل فارقتهم ∴ وكنت أراهم رفاقا عزينا
كأن تأوب أهليهم ∴ حنين عشار تحب الحنينا
وإخوان صدق لحقنا بهم ∴ فقد كنت بالقرب منهم ضنينا
وأوحشت الدار من بعدهم ∴ أظل على ذكرهم مستكينا

(١) الموسوعة الشعرية: ٢٣، ٢٤ ــ لم آلها: لم أقصر فى حقها، عزين: متفرقين، تأوب: عاود، عشار: اللقح من الإبل تحن إلى تلقيح غيرها ، مستكينا: ذليلا خاضعا ــ المعجم الوجيز: ٢٣، ٢٩، ٤١٨، ٥٤٥، لسان العرب: ٤/ ٢٩٥٤ ، يلاحظ أنه لجأ فى البيت الثانى إلى الضرورة الشاذة، حين فك المدغم فى قوله: (وأعزز) وهذا يعد "من الضرورات القبيحة التى يمجها الذوق العربى ولا يستريح إليها" أوزان الشعر العمودى وموسيقاه: ١٧٤، وكان باستطاعته القول: .... وكم عزها اليوم أيضا دفينا.

نحن أمام تجربة عميقة، وفكرة جليلة، تتمثل فى قوة العاطفة بالحنين والشوق إلى هؤلاء الرفاق الذين صاروا أثرا بعد عين، ومن ثم آثر كون القافية (حرف النون) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة، وحركه بالفتح بما فيه من استعلاء؛ ليتفق كل ذلك مع عمق التجربة، وسمو الفكرة، كما حرص على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة الهائلة من الحنين، نتيجة تلك العاطفة القوية، ولم يكتف بهذا، بل أتبع القافية بألف الإطلاق؛ كى يتحقق لدوى حنينه الانطلاق، ويستمر متصلا حتى يطرق سمع كل متلق فى أرجاء المعمورة، هذا فى الوقت الذى استعرض فيه الفكرة فى رقة لفظ، وجلاء معنى، ومن ثم كان الإيثار لبحر المتقارب، بصفته أحد البحور الخفيفة؛ لينسجم برقته وخفته مع تلك السهولة والوضوح.

أضف إلى ذلك، مدى حرصه على تلك التعبيرات ذات الظلال الموحية : ففى وصفه هؤلاء المدفونين بالأحبة، إيماء إلى مدى منزلتهم فى نفسه، ورغم ذلك أهال عليهم التراب، تنفيذا لسنة الله فى خلقه، وتكريما لابن آدم الذى قال الله فى حقه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾[1]، وفى التعبير بالوقار والنبل والبر والدين، بيان بمدى ما كان عليه هؤلاء الأحبة من أناقة الأخلاق، وجميل السمات، وفى قوله: (أظل على ذكرهم مستكينا)، إشارة إلى مدى الخضوع والتسليم لأمر السماء؛ فقد استوحشت برحيلهم الديار والخلوات، ولم يبق بها أنيس سوى الذكريات، وفى هذا ما فيه من العبر والعظات، هذا وقد استعان الشاعر على تقرير كل هذه المعانى، من خلال اللجوء إلى الجناس الناقص بين (طينا، دينا) وبين (حنينا، ضنينا)، والمقابلة بين شطرى البيت الثانى، فالأحباء أعزاء فى الدنيا قبل الممات، وأعزاء فى

(١) سورة عبس: ٢١ .

الآخرة يوم أهيل عليهم التراب، والتشبيه فى البيت الخامس، فالحنين إليهم يحاكى حنين اللقح من الإبل إلى تلقيح غيرها، وخص الإبل؛ لأنها من كرائم أموال العرب ، والاقتباس من القرآن الكريم: ففى وصفه الرفاق بالعزين، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[1]، وفى إسناده الحنين إلى العشار، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴾[2].

جـ- العبرة من أحوال الموتى فى القبور:

مما لا ريب فيه، أن من أقوى دواعى العظات، أن يخلو المرء بنفسه بعض الأوقات، ويتخيل أحوال الموتى تحت أطباق التراب، ففى هذا ما فيه من العبر لأولى الألباب، هكذا يتخيل (ابن المبارك) قائلا من بحر الرمل المجزوء[3]:

كم ببطن الأرض من ∴ ثاو شريف ووزير
وصغير الشأن عبد ∴ خامل الذكر حقير
لو تصفحت وجوه الـ ∴ قوم فى يوم نضير
لم تميز زهم ولم ∴ تعرف غنيا من فقير
حمدوا فالقوم صرعى ∴ تحت أشداق الصخور
واستووا عند مليك ∴ بمساويهم خبير
حكيم عدل ولا يظـ ∴ لم مقدار النقير

---

(١) سورة المعارج: ٣٧ .

(٢) سورة التكوير: ٤، والمعنى: أن أصحاب هذه الإبل الكرام يهملونها؛ انشغالا بأنفسهم من هول وفزع يوم القيامة.

(٣) الموسوعة الشعرية: ٦، ٧، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٧ ــ ثاو: مقيم ومستقر بالمكان، صرعى: مطروحون على الأرض ، النقير: نقرة صغيرة فى ظهر النواة ــ المعجم الوجيز٨٩، ٣٦٣، ٦٣٠، يلاحظ اضطراب الوزن فى الشطر الثانى من البيت الأول، فضلا عن الحذف الذى اعترى التفعيلة الخاصة بالعروض، والصواب أن يكون البيت على هذا النحو: =

=كم ببطن الأرض ثاو ∴ من شريف ووزير

كما تورط فى (سناد الحذو) بين كلمتى: (فقير ــ الصخور).

لقد آثر الشاعر بحر الرمل، وجعله مجزوءا؛ مبالغة فى تحقيق الرقة والخفة التى تتفق وهذا الجلاء للفكرة،وتلك السهولة والوضوح لكل من اللفظ والمعنى، بيد أنه لما كان المقام مقام التخيل لأحوال الموتى فى القبور، وما يترتب على ذلك من العظة التى تملأ القلوب والصدور، فالتجربة عميقة، والفكرة سامية، ومن ثم آثر كون القافية (حرف الراء) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ لينسجم ذلك مع عمق التجربة، وجلال الفكرة، ولما كانت الشحنة الإيمانية قوية؛ لأخذ العبرة من هذا المقام، حرص على سبق القافية بحرف المد؛ كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة الحماسية، نتيجة لعاطفته الإيمانية.

أضف إلى ذلك، مدى حرصه على تلك التعبيرات الموحية: ففى إيثاره التعبير بكم الخبرية، إيماء إلى كثرة عدد الموتى الذين رحلوا عن الدور والقصور، وسكنوا حضيض القبور، كما تبدو مدى الدقة فى التعبير بقوله:(ثاو)، إشارة إلى مدى الاستقرار، وغاية السكون الذى يسيطر على الأجساد،كيف لا! وهذه هى النومة الأخيرة التى لا يقظة بعدها إلا فى يوم الميعاد، وها هو ذا يؤكد ذلك بقوله[1]:

حمدوا فالقوم صرعى ∴ تحت أشقاق الصخور

وفى الجمع بين الشريف وصغير الشأن، إيماء صريح إلى أن الموت لا يفرق بين الكبير والصغير، ولا بين الوزير والخفير، الجميع أمام الحق سواء، وها هو ذا يؤكد ذلك بقوله:

واستووا عند مليك ∴ بمساويهم خبير

وفى قوله: (لم تميزهم، صرعى) تنويه إلى مدى العظة والعبرة من تخيل وجوه وأحوال الموتى تحت أطباق التراب، بعد أن فعل فيها فعله، فلا تمييز بين الأعداء والأحباب، ولا وزن عنده للأحساب

(١) قوله:حمدوا،فيه تصحيف بإسقاط النقطة،وتحريف بإبدال حرف آخر، والصواب (خمدوا) حتى يستقيم المعنى،والمراد أن "أجسادهم سكنت وماتوا فصاروا بمنزلة الرماد الخامد"ـ المعجم الوجيز:٢١١ .

والأنساب، كما استعان الشاعر على إبراز كل هذه المعانى؛ بغية التوضيح والتقرير لها فى الأذهان، من خلال اللجوء إلى الطباق بين (شريف، حقير)، (غنى، فقير)، والجناس الناقص بين (حقير، فقير)، (فقير، نقير) ، والاقتباس من القرآن الكريم: فالتعبير بقوله: (صرعى) ، إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن قوم عاد (عليه السلام) : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[1]، وفى التعبير (بالنقير)، إيماء إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[2] .

د ـ العبرة من استحضار النهاية:

من الملاحظ أن الشاعر كان شديد الحرص على تنوع مظاهر تلك النهاية، لا لشىء سوى التشويق والإثارة لتحريك الذهن، واستجماع المشاعر؛ لاستيعاب هذه المظاهر من جهة، ومن جهة أخرى، العمد إلى تدبر كل مظهر منها، واستحضار صورته شاخصة أمام البصيرة والأبصار، حتى يكون ذلك مدعاة إلى العظة والاعتبار .

تارة يدعو إلى العبرة من جلال الموت وهيبته، يقول من بحر البسيط[3]:

وكيف قرت لأهل العلم أعينهم ∴ أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا
والموت ينذرهم جهرا وعلانية ∴ لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا

لما كان للموت رهبة، ولسطوته هيبة، ولأسبابه عدة، استلزم ذلك عمق التجربة، وجلال الفكرة، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط وما يتميز به من الإيقاعات السريعة المتلاحقة؛ لتنسجم ــ بدورها ــ مع هذه الزفرات المتتابعة، كما حرص على كون القافية(حرف العين)

(١) سورة الحاقة: ٦، ٧ .
(٢) سورة النساء: ١٢٤ .
(٣) الموسوعة الشعرية: ١٢، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٥ .

بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة، وحركه بالضم وما يوحى به من معنى الفخامة؛ ليتفق كل ذلك مع عمق التجربة، وسمو الفكرة.

أضف إلى ما سبق، هذا الحرص على تلك التعبيرات الشفافة ذات الظلال الموحية: ففى التعبير بقوله: (وكيف قرت)، أسلوب استفهام، أراد به الإنكار والتوبيخ لكل من يدركون حتمية الموت فى أية لحظة، كيف ينعمون بالنوم، ويمتعون بالآثام، دون التهجد والعبادة والناس نيام، وها هو ذا يؤكد ذلك ويقرره حين يصفهم بالصمم عن سماع الحق بقوله: (لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا)، وفى إسناده الإنذار إلى الموت، أسلوب تهديد ووعيد يؤكد مدى سطوة الموت وجلال هيبته، ومن ثم، ينبغى استحضاره فى الخلوات والجلوات، والاستعداد له فى جميع الأوقات، بالاستغراق فى عمل الصالحات، ولكى يوضح الشاعر هذا المعنى ، ويزيده عمقا وتقريرا فى النفوس، حرص على الطباق بين الجهر والعلانية.

وتارة يدعو إلى العبرة من النار وعذابها ــ يقول من بحر البسيط[1]:

والنار ضاحية لابد موردهم ∴ وليس يدرون من ينجو ومن يقع

لنفس البواعث السابق ذكرها آنفا، كان الإيثار لبحر البسيط، ولنفس القافية التى حرص أيضا على التحريك لها بالضم، مبالغة فى التهديد، وأملا فى العظة والخوف من يوم الوعيد .

أضف إلى ذلك، هذا الحرص على التعبيرات الموحية: ففى إيثاره الوصف للنار بكونها ضاحية، إيماء صريح إلى شدة وضوحها وبروزها يوم العرض أمام بنى الإنسان، وهذا أدعى إلى ضرورة استحضارها فى الأذهان، ثم يعمد إثر ذلك إلى التنوع فى الأسلوب؛ حرصا على التشويق والتأثير، يبدو هذا فى قوله: (لابد موردهم) ، أسلوب ترهيب ووعيد لكل من خالف المنهج وشق عصا الطاعة على

(١) الموسوعة الشعرية: ١٢، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٥ .

الله، وفى قوله: (وليس يدرون) أسلوب ترغيب فى عمل الصالحات، إثر التحلى بحسن الظن بالله، والطمع فى رحمته جل علاه، هذا وقد استعان الشاعر على إبراز كل هذه المعانى وتوضيحها، من خلال اللجوء إلى الطباق بين (ينجو، يقع)، والاقتباس من القرآن الكريم، ففى قوله: (لابد موردهم) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1].

وأخيرا يدعو إلى العبرة من يوم القيامة وأهواله الجسام، مخاطبا كل غارق فى مستنقع الآثام، ومبينا ذلك بطريق الإجمال ــ يقول من بحر الرمل المجزوء[2]:

أو ما تحذر من يو .·. م عبوس قمطرير
اقمطر الشر فيه .·. بعذاب الزمهرير

نحن أمام تجربة عميقة، وعاطفة متأججة بالحماس الإيمانى؛ لإبراز مدى الهول الخاص بيوم القيامة، ومن ثم كان الإيثار للقافية (بحرف الراء) بصفته أحد الأصوات الشديدة المجهورة؛ ليتفق ذلك مع عمق التجربة، وقوة العاطفة، ومما يعضد هذا ، حرصه على سبق القافية بحرف المد (الياء)؛ كى يساعده على تفريغ تلك الشحنة الحماسية؛ أملا فى الاتعاظ والاعتبار من هول ذلك اليوم، بيد أنه لما استعرض كل هذه المعانى بأسلوب رقيق، ومعان جليلة، استدعى ذلك الإيثار لبحر الرمل المجزوء، والتحريك للقافية بالكسر، وما فيه من الإيحاء بمعنى الرقة والضعف؛ لينسجم كل ذلك مع هذه الرقة

(١) سورة مريم ــ الآيتان: ٧١، ٧٢ .
(٢) الموسوعة الشعرية: ٦، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٧ ــ العبوس: التجهم بالجمع لجلد الجبهة وتقريب ما بين الحاجبين، القمطرير: الشديد العذاب والهول، الزمهرير: البرد الشديد ــ المعجم الوجيز: ٢٩٢ ، ٤٠٤، ٥١٥ .

الأسلوبية، وتلك المعانى الجليلة، فضلا عن المبالغة فى رقة البحر وخفته.

أضف إلى ذلك، هذا الحرص على تلك التعبيرات الموحية: ففى إيثاره التنكير لليوم، إيماء إلى مدى التفخيم والتهويل من شدة عذابه، وفى الوصف له بكونه عبوسا قمطريرا، مبالغة فى درجة هذا الهول وشدة صعوبته وعسره، والمراد: عبوس وجوه العصاة والكفار من هول ما يجدون، وليس أدل على ذلك من التعبير بالزمهرير؛ تأكيدا لشدة البرودة كلون من ألوان العذاب، بجانب النار ولهيبها، كما نلحظ استعانة الشاعر على إبراز وتقرير كل هذه المعانى، من خلال الاقتباس من القرآن الكريم، فالتعبير (بالعبوس القمطرير)، إشارة إلى قوله تعالى على لسان الأبرار: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1]، وفى التعبير (بالزمهرير) إشارة إلى وصفه تعالى للجنة وأهلها بقوله: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[2].

وإذا كان الشاعر قد استعرض ــ فى هذا المقام ــ هول يوم القيامة وشدته بهذا الإجمال، ففى مقام آخر يلجأ إلى التفصيل ببيان مظاهر هذا الهول؛ رغبة فى التشويق ولفت الأنظار، وأملا فى تحقيق كل معانى العظة والاعتبار ــ يقول من بحر البسيط[3]:

والآدمى بهذا الكسب مرتهن ∴ له رقيب على الأسرار يطلع
حتى يوافيه يوم الجمع منفردا ∴ وخصمه الجلد والأبصار والسمع
يود قوم ذوو عز لو أنهم ∴ هم الخنازير كى ينجوا أو الضبع

(١) سورة الإنسان: ١٠.
(٢) سورة الإنسان: ١٣.
(٣) الموسوعة الشعرية: ١٢، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٦٥ ــ يوم الجمع: يوم القيامة الذى يجمع فيه الخلق للحساب ، هيهات: اسم فعل ماض يفيد البعد ــ المعجم الوجيز: ١١٧، ٦٥٧.

طال البكاء فلم ينفع تضرعهم ∴ هيهات لا رقة تغنى ولا جزع
هل ينفع العلم قبل الموت عالمه ∴ قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا

إذا كان المقام السابق مقام الذكر لأهوال يوم القيامة بالإجمال، فالمقام هنا مقام التفصيل لمظاهر تلك الأهوال الجسام، ومن ثم كان الإيثار لبحر البسيط؛ ليتناسب بسرعة إيقاعاته المتلاحقة مع هذه المظاهر المتتابعة، كما حرص على التحريك للقافية بالضم وما يوحى به من معانى الفخامة والقوة؛ لينسجم ذلك مع عمق التجربة، وجلال الفكرة، وشدة الرهبة التى تدعو إلى العظة والعبرة من أهوال ذلك اليوم العسير ٠

أضف إلى ذلك ، حرصه على تلك التعبيرات الموحية: ففى وصفه الآدمى بكونه مرتهنا بكسبه، إيماء إلى مدى مسئوليته الجسيمة أمام ربه، وأن مصيره مرهون بعمله الذى سيسأل عنه يوم الحساب، فليكن مستعدا لمجابهة أهوال ذلك اليوم الشديد العذاب، وها هو ذا يؤكد ذلك بوصفه الحق سبحانه بكونه رقيبا ومطلعا على الأسرار، إشارة إلى مدى سعة علمه، وفى إيثاره الوصف ليوم القيامة بيوم الجمع، إيماء إلى اجتماع كل الخلائق فيه للعرض والحساب، كل سيسأل عن نفسه، وها هو ذا يقرر ذلك بقوله: (منفردا)؛ ليشير إلى أن المرء فى هذا اليوم لا ينفعه حسب ولا نسب، ولا جاه ولا مال، وإنما ينفعه فقط ما قدم من صالح الأعمال، وفى اختصام الجوارح له، إيماء إلى أن هذا اليوم يوم الأهوال، ويوم الغرائب والعجائب من الأفعال، حين تشهد الجوارح على صاحبها بلسان الحال، ولو تدبرنا حقيقة السبب ، لزال العجب؛ لأن الذى أنطقها هو الكبير المتعال، وفى إظهاره ذوى الجاه والسلطات، مظهر التمنى لو كانوا من

العجماوات، إيماء إلى مدى هول العذاب فى هذا اليوم وصعوبته من ناحية، وأن جاههم وسلطانهم كان وبالا عليهم من ناحية أخرى، كما أن فى وصفه البكاء بالطول ، إشارة إلى نهاية الحسرة، وغاية العذاب الذى يطول استمراره، دون أن يعلم أحد بنهايته إلا الله وحده، وأنه لا مهرب منه البتة، وها هو ذا يؤكد ذلك باسم الفعل الماضى (هيهات)؛ ليومئ إلى تحقق وقوع استبعاد النجاة والفرار من هذا العذاب الذى لا يجدى معه تضرع ولا جزع، وفى قوله: (هل ينفع العلم قبل الموت عالمه؟) أسلوب استفهام، أراد به النفى القاطع لعودة العصاة إلى الدنيا حال المعاينة لهول العذاب؛ استدراكا لما فرطوا فى الحرمان من الثواب، وها هو ذا يوضح ذلك ويقرره بهذا التمثيل: (قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا).

ومن الملاحظ أن الشاعر قد استعان على تقرير كل ما يريد من هذه المعانى فى الأذهان، وذلك باللجوء تارة إلى الطباق بين قوله: (ذووعز، الخنازير والضبع)، وبين (الرقة، الجزع)، والمراد: التضرع وعدمه، وبين (السؤال للرجعى، ونفى ذلك عنهم)، وتارة أخرى إلى الاقتباس من القرآن الكريم، فقوله: (والآدمى بهذا الكسب مرتهن)، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1] ، وقوله: (له رقيب على الأسرار يطلع) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]، وقوله: (يوم الجمع) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ﴾[3]، وقوله: (وخصمه الجلد

(١) سورة الطور ــ من الآية: ٢١ .
(٢) سورة آل عمران : ٥ .
(٣) سورة التغابن ــ من الآية : ٩ .

والأبصار والسمع) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن معاينة العصاة والمشركين للنار وأهوالها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[1]، وقوله: (قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن حال الكفار والمذنبين لحظة النزع: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾[2].

هكذا كان ابن المبارك (ﷺ) قبل أن يكون من الزهاد الأصفياء، ومن العلماء المحدثين الفقهاء، ومن المجاهدين والتجار الأثرياء، الذين لم يفتنهم بريق المال، عن الزهد والإخلاص فى الدعوة للكبير المتعال، كان شاعرا مبدعا فى فنه، صادقا فى شعره الذى تنوعت اتجاهاته ما بين الدينية، والأخلاقية، والوعظية، وقد استعرض ذلك كله من خلال أفكار واضحة، وأساليب سلسة، وألفاظ منتقاة، وخيال مؤثر يأخذ بمجامع الألباب، ويؤثر فى العواطف والأحاسيس.

(١) سورة فصلت: ٢٠، ٢١ .
(٢) سورة المؤمنون: ٩٩، ١٠٠ .

تعقيب

هذا عن اتجاهات الزهد فى شعره، وقد تجلى فيها مدى صدقه وإخلاصه من ناحية، وإبداعه الفنى الذى يكشف عن مهارته واقتداره من ناحية أخرى، وليس معنى ذلك أنه معصوم من الأخطاء، فكم زلت القدم فى غير القليل منها، ما بين لغوية، وأخرى عروضية ، ولما كان السبب فى ذلك يرجع إلى أحد أمرين، أو للأمرين معا: إما لغمرة انشغاله بالفكرة التى هو بصددها عن التجويد لشعره دون التنبه إلى ذلك، وإما للعبث الذى ألم بشعره من قبل النساخ ممثلا فى التصحيف أو التحريف ــ وقد استعرضت ذلك كله فى موضعه من الحاشية على النحو الذى سبق.

وإذا كانت هذه الأخطاء فى مجال اللغة أو العروض، فإنه مما يحسب له أنه لم تزل قدمه فى أية أخطاء شرعية أو عقدية، ومرد ذلك إلى سلوكه فى زهده أسلوب الزاهد المعتدل الذى لم يغال فى زهده فيبلغ درجة التقشف والرهبنة والعزلة عن المجتمع، ولم يفرط فى مبادئه فينجرف فى تيار الهفوات، ولكنه نهج منهج الوسطية والاعتدال، فارتحل طلبا للعلم وللتجارة، وغزا وجاهد فى سبيل الله، وفى الوقت نفسه زهد فى زخرف الدنيا، وعف عن متاعها الزائل، فكان فى كل سلوكياته مطوعا حياته؛ إخلاصا وطاعة لله سبحانه.

الخاتمة

الحمد لله الواحد المنان، خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على سيد الأنام، سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام)، وعلى آله وصحبه الأخيار الكرام .... وبعد

ما أجل تلك السياحة العلمية، وما تطلبته من إضاءة على عالم الزهد، ببيان حقيقته، ودرجاته، وعلاماته، ثم التناول لشخصية ابن المبارك، وما اتصف به من قوة الذاكرة، وعظيم السمات، بالإضافة إلى الزهد والصلاح والكرامات، وقد كان لتلك الشخصية أثرها البارز فى شعره الذى كان مرآة صادقة لاتجاهات زهده، تلك الاتجاهات التى تنوعت ما بين الدينى والأخلاقى والوعظى.

إثر هذه الإطلالة السريعة على مباحث تلك الدراسة، كان العديد من النتائج التى يتمثل أبرزها فيما يلى :

- لم ينهج ابن المبارك فى زهده، منهج المتشدد والمتعصب فى فكره، أو اللاجئ إلى الشطط والمغالاة فى سلوكه، أو المفضل للعزلة والرهبنة فى صومعته ، وإنما كان منهجه منهجا وسطا معتدلا، دون إفراط ولا تفريط.
- الدعوة إلى الزهد فى الدنيا، والتحقير من شأنها، والتعفف عن متاعها، إن لم يتخذها الإنسان مزرعة لآخرته، ومن ثم كثر نظمه فى التقوى والحث على طاعة الله فى كل الأوقات.
- إهداء غير القليل من درر النصائح والإرشادات السامية، وذلك من خلال الاتجاه الدينى والأخلاقى والوعظى، وفى هذا دلالة أكيدة على مدى صدقه وإخلاصه فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- **مما يؤكد مدى تمتعه بالثقافة الإسلامية ، شيوع ظاهرة الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ما بين التلميح تارة، والتصريح تارة أخرى.**
- **يتميز معجمه اللغوى بالسهولة والوضوح، مع الاحتفاظ بالبناء اللغوى، والتمكن من ناصية البيان، وفى هذا ما فيه من عظيم التأثير فى القلوب ، ومن ثم كان التحقق للمطلوب.**
- **البراعة فى الإبداع الفنى حيث جلال الأفكار، وسمو المعانى، ورقة الأسلوب، وجلاء الألفاظ، وروعة التصوير، ومراعاة التناسب بين البحور أو الموسيقى وبين الموضوعات، وكلها سمات تؤكد لنا مدى عبقريته ، ونبوغ شاعريته.**
- **اللجوء إلى أسلوب الترغيب والترهيب، كما لحظنا فى الاتجاه الدينى والأخلاقى، هذا إلى جانب الإشراق والدقة والسهولة فى الأداء الشعرى إلى درجة تكاد تقترب من النثر، وهذا من أبرز الأسباب التى جعلت أدب الزهد يتردد على الألسنة ما دامت الأيام، لا فرق فى ذلك بين الخواص والعوام.**
- **التركيز ــ بالإضافة إلى ما سبق ــ على الأسلوب الدعوى المؤثر الذى يؤز المشاعر(١)، ويهز الأحاسيس، ويزلزل أوتار القلوب ، وذلك من خلال الاتجاه الوعظى .**
- **التركيز على المعانى السامية: كالتقوى والصبر والكرم والحلم وبذل المعروف، والرحلة فى طلب العلم، والجهاد فى سبيل الله،**

(١) الأز: بتشديد المعجمة هو الحركة الشديدة، قال تعالى: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ أى تحركهم بشدة، وتدفعهم إلى ارتكاب الذنوب والمعاصى ــ لسان العرب: ١/ ٧٢، سورة مريم ، من الآية : ٨٣ .

وحفظ اللسان، والعفة والقناعة، وقد يلجأ إلى تكرارها لا لشيء سوى التقرير والتوكيد لها فى ذهن المتلقى.

- التحذير من التهاون فى أمر الدين، وأكل مال اليتيم، وسؤال المخلوق، والنفاق، والغيبة، والحسد، وغير ذلك من الأدواء التى ينبغى أن يتحرز منها المؤمن كامل الإيمان، حتى يفوز برضا الواحد الديان.
- تلك كانت أبرز النتائج التى أسفر عنها البحث، أما عن التوصيات فإننى أهيب بالباحثين أن يأخذوا على عاتقهم مسئولية الاهتمام بدراسة من هم على شاكلة ابن المبارك: كإبراهيم بن أدهم، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثورى، ومحمود الوراق، وغيرهم من الزهاد العباد الذين تعد حيواتهم "نبراسا للناشئة والآباء والأجداد، تدينا، وفكرا، وعلما، وخلقا، وسلوكا لمثل سامية، ومعان راقية، يندر أن يجود الزمان بما يضارعها فى المجتمع الغربى، يستوى فى ذلك ماضيه التليد، وحاضره الجديد"[1].

وفى الختام أتوجه إلى الحق سبحانه، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به بقدر ما بذل فيه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا، نعم المولى ونعم النصير.

(١) الإمام الربانى الزاهد: ٩ بتصرف.

ثبت المصادر والمراجع
أولا ـ القرآن الكريم
ثانيا ـ الكتب المطبوعة

- إحياء علوم الدين ــ الإمام أبوحامد محمد بن محمد الغزالى ــ دار الريان للتراث، المكتبة التجارية الكبرى ــ القاهرة ــ (بدون تاريخ)٠
- أدب الزهد فى العصر العباسى ــ نشأته وتطوره وأشهر رجاله دكتور/ عبدالستار السيد متولى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ط: ١٩٨٤م٠
- الأدب الصوفى ــ دكتور/ عبدالمنعم محمد حسنين ــ مكتبة الحرية الحديثة ــ جامعة عين شمس ــ القاهرة ــ ط: ١٩٨٨م٠
- الأعلام ــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ــ خير الدين الزركلى ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ثالثة: ١٩٦٩م، نسخة أخرى ــ طبعة خامسة: ١٩٨٠م٠
- الأغانى ــ على بن الحسين المعروف بأبى الفرج الأصبهانى تحقيق الأستاذ الدكتور/ عبدالسلام محمد هارون ــ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ــ مؤسسة جمال للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ)٠
- الإمام الربانى الزاهد عبدالله بن المبارك ــ الأستاذ الدكتور/ عبدالحليم محمود ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة: ١٩٩٥م٠
- الأنساب ــ الإمام أبوسعد عبدالكريم بن محمد السمعانى ــ تحقيق الشيخ/ عبدالرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى ــ نشر

الأستاذ/ محمد أمين دمج ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ثانية: ١٩٨٠م٠

- أوزان الشعر العمودى وموسيقاه ــ الأستاذ الدكتور/ حسن أحمد الكبير ــ مطبعة الأمانة ــ القاهرة ــ ط: ١٩٩٩م٠
- البداية والنهاية ــ الإمام أبوالفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ــ مكتبة المعارف ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ثانية: ١٩٧٧م، نسخة أخرى ــ طبعة ثالثة: ١٩٧٨م٠
- تاريخ الأمم والملوك ــ الإمام أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى ــ دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ١٩٧٩م٠
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام ــ الحافظ أبوبكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ (بدون تاريخ)٠
- تاريخ التمدن الإسلامى ــ الأستاذ/ جورج زيدان ــ مطبعة دار الهلال ــ القاهرة ــ طبعة: ١٩٣١م٠
- تذكرة الحفاظ ــ الإمام أبوعبدالله شمس الدين الذهبى ــ تصحيح وزارة المعارف الهندية ــ طبع ونشر ــ دار الفكر العربى ــ بيروت ــ لبنان ــ ط: ١٩٥٥م٠
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ــ الإمام الحافظ زكى الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى المنذرى ــ تحقيق الأستاذ/ مصطفى محمد عمارة ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة أولى: ١٩٨٦م، نسخة أخرى ــ هدية جريدة صوت الأزهر ــ طبعة: ٢٠٠٥م ٠

- تهذيب الأسماء واللغات ــ الإمام أبوزكريا محيىالدين بن شرف النووى ــ إدارة الطباعة المنيرية ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ)٠
- تهذيب التهذيب ــ شيخ الإسلام شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى ــ دار الكتاب الإسلامى ــ طبعة ١٣٢٦هـ٠
- التوجيه الأدبى ــ الأستاذ الدكتور/ طه حسين ، أحمد أمين، عبدالوهاب عزام، محمد عوض محمد ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٨١م٠
- حركة التجديد فى الشعر العباسى ــ الأستاذ الدكتور/ محمد عبدالعزيز الموافى ــ دار الصافى للطباعة والنشر ــ القاهرة (بدون تاريخ)٠
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ الحافظ أبونعيم أحمد بن عبدالله الأصبهانى ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ثالثة : ١٩٨٠م٠
- رياض الصالحين ــ الإمام أبوزكريا يحيى بن شرف النووى الدمشقى ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الحادية عشرة: ١٩٨٥م ، نسخة أخرى ــ تحقيق الأستاذ/ شعيب الأرنئوط ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة خامسة: ١٩٨٦م، نسخة ثالثة ــ طبع ونشر دار القاسم ــ الرياض ــ السعودية ــ طبعة أولى: ٢٠٠٢م٠
- سير أعلام النبلاء ــ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ــ الجزء الثامن ــ تحقيق الأستاذين: شعيب

الأرنئوط ، نذير حمدان ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان ــ ط أولى: ١٩٨١م٠

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ــ المؤرخ أبوالفلاح عبدالحى ابن العماد الحنبلى ــ المكتب التجارى للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ)، نسخة أخرى ــ تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ)٠
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ــ تحقيق الشيخ محمد محيىالدين عبدالحميد ــ نشر دار الفكر ، المكتبة العصرية ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٩٠م٠
- الشعر والشعراء فى العصر العباسى ــ الأستاذ الدكتور/ مصطفى الشكعة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة خامسة: ١٩٨٠م٠
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ــ أبوالعباس أحمد بن على القلقشندى ــ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ــ القاهرة (بدون تاريخ)٠
- صحيح الترمذى ، بشرح الإمام ابن العربى المالكى ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ)٠
- صفة الصفوة ــ تحقيق الأستاذ/ إبراهيم رمضان ، سعيد اللخام ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة أولى: ١٩٨٩م٠
- صفوة التفاسير ــ الأستاذ الدكتور/ محمد على الصابونى ــ دار الرشيد ــ حلب ــ سورية ، المطبعة العربية الحديثة ــ القاهرة ــ طبعة: ١٣٩٩هـ٠

- ضحى الإسلام ــ الأستاذ أحمد أمين ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ طبعة: ١٩٧٧م، ١٩٧٩م٠
- طبقات الشافعية الكبرى ــ شيخ الإسلام تاج الدين أبونصر عبدالوهاب بن عبدالكافى السبكى، تحقيق الأستاذ/ محمود محمد الطناحى، عبدالفتاح محمد الحلو ــ مطبعة عيسى البابى الحلبى ــ القاهرة ــ طبعة أولى ١٩٦٤م٠
- ظهر الإسلام ــ الأستاذ/ أحمد أمين ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ طبعة رابعة: ١٩٧٥م٠
- عبدالله بن المبارك ــ عالم الشرق والغرب وما بينهما ــ الشيخ/ أبوالوفا المراغى ــ المكتب الفنى للنشر ــ مطبعة الطناحى ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٩٥٩م٠
- العبر فى خبر من غبر ــ مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى ــ تحقيق الأستاذ/ أبى هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة أولى: ١٩٨٥م٠
- العصر العباسى الأول ــ الأستاذ الدكتور/ شوقى ضيف ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة سادسة: ١٩٧٦م٠
- العصر العباسى الثانى ــ الأستاذ الدكتور/ شوقى ضيف ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة رابعة: ١٩٨١م٠
- عيون الأخبار ــ محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ طبعة: ١٩٧٣م٠
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ــ الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ــ تحقيق الأساتذة: محمد فؤاد

عبدالباقى، محب الدين الخطيب، قصى محب الدين الخطيب ــ دار الريان للتراث ــ القاهرة ــ ط أولى: ١٩٨٦م٠

- فصول فى الشعر ونقده ــ الأستاذ الدكتور / شوقى ضيف ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة: ١٩٧١م٠
- فن القريض ــ الأستاذ الدكتور/ محمد السعدى فرهود ــ دار الطباعة المحمدية ــ القاهرة ــ طبعة: ١٩٧٨م٠
- الفهرست ــ محمد بن إسحق النديم المعروف بأبىــالفرج بن أبىيعقوب الوراق ــ تحقيق الأستاذ/ رضا بن على زين العابدين الحائرى ــ طبعة ١٩٧١م٠
- فى الأدب الإسلامى ــ قضاياه وفنونه ونماذج منه ــ الأستاذ الدكتور/ محمد صالح الشنطى ــ دار الأندلس ــ حائل ــ السعودية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٣م٠
- فى الأدب العباسى ــ العصر الأول ــ الأستاذ الدكتور/ سليمان حسن ربيع ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٩٦٨م٠
- فى الأدب العربى القديم ــ عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه ــ الأستاذ الدكتور/ محمد صالح الشنطى ــ دار الأندلس للنشر والتوزيع ــ حائل ــ السعودية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٢م٠
- قصة الأدب فى العالم ، الأستاذ الدكتور/ أحمد أمين ، زكى نجيب محمود ــ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة (بدون تاريخ)٠

- الكامل فى التاريخ ــ عزالدين أبوالحسن الشيبانى المعروف بابن الأثير ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ١٩٧٩م٠
- الكشاف فى حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ــ أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ــ دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان ــ ط أولى : ١٩٧٧م٠
- مجمع الأمثال ــ أبوالفضل أحمد بن محمد الميدانى ــ تحقيق الأستاذ محمد أبىالفضل إبراهيم ــ طبع ونشر ــ عيسى البابى الحلبى ــ القاهرة ــ طبعة: ١٩٧٧م ــ نسخة أخرى ــ طبعة: ١٩٧٨م٠
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ــ الإمام أبومحمد عبدالله بن أسعد اليافعى ــ مطبعة دائرة المعارف النظامية ــ حيدر آباد ــ طبعة: ١٣٣٧هـ٠
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ أبوالحسن على بن الحسين المسعودى ــ تحقيق الشيخ/ محمد محيىالدين عبدالحميد ــ دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة: ١٩٧٣م، نسخة أخرى (بدون تاريخ)٠
- المعارف ــ أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ــ تحقيق دكتور/ ثروت عكاشة ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ الطبعة الرابعة: ١٩٦٩م٠
- معجم البلدان ــ الإمام شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى ــ دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة: ١٩٧٩م٠

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ــ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ــ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ــ طبعة: ١٩٦٣م ، نسخة أخرى (بدون تاريخ)٠
- نكت الأمثال ونفثة السحر الحلال ــ أبوالربيع سليمان بن موسى الكلاعى، تحقيق الأستاذ الدكتور/ على إبراهيم كردى ــ دار سعدالدين للطبع والنشر ــ دمشق ــ طبعة أولى : ١٩٩٥م٠
- الورقة ــ أبوعبيد الله محمد بن داود الجراح ــ تحقيق الأستاذ الدكتور/ عبدالوهاب عزام ، عبدالستار فراج ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة ثانية: ١٩٥٣م، نسخة أخرى (بدون تاريخ)٠
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ــ أبوالعباس شمس الدين أحمد بن خلكان ــ تحقيق الأستاذ الدكتور/ إحسان عباس ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة ١٩٧٠م٠

ثالثا ـ الدواوين

- الموسوعة الشعرية (قرص مدمج CD) الإصدار الثالث ــ إشراف الأستاذ/ محمد أحمد السويدى، وآخرين ــ المجمع الثقافى ــ أبوظبى ــ الإمارات : ١٩٩٧ ــ ٢٠٠٣م٠

رابعا ـ المعاجم

- القاموس المحيط ــ مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى ــ دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ لبنان ــ طبعة أولى ١٩٩١م٠

- لسان العرب ــ جمال الدين بن منظــور ــ تحقيــق الأســتاذ/ عبدالله على الكبير ، وآخرين ــ دار المعارف ــ القاهرة (بــدون تاريخ) ٠
- المعجم الوجيز ــ مطابع شركة الإعلانات الشرقية ــ القاهرة ــ طبعة أولى ١٩٨٠م ، نسخة أخرى ــ إعداد مجمع اللغة العربيــة بالقاهرة ــ الهيئة العامة لشــئون المطــابع الأميريــة ــ طبعــة ٢٠٠٥م٠

خامسا ـ الدوريات

- المجلة العلمية بكلية اللغة العربية ــ فرع الزقــازيق ــ العــدد السادس ــ طبعة: ١٩٨٧م٠